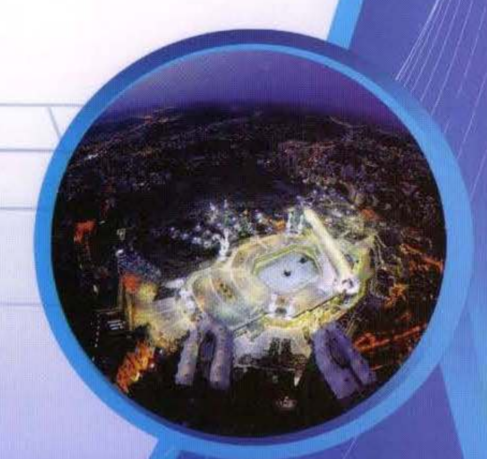
Controversial Questions About
ISLAM & COMMENTS

الطبعة الخامسة ١٤٣٣هـ

تساؤلات جدلية حول الإسلام وتعليقات



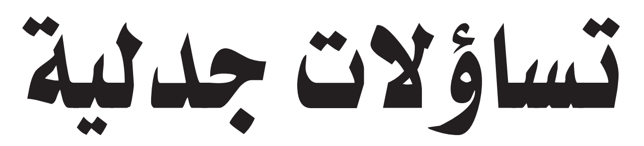


إعداد
د. سعيد إسماعيل صيني

تساؤلات جدلية

حول الإسلام وتعليقات

د. سعيد إسماعيل صيني



حول الإسلام وتعليقات

إعداد

د. سعيد إسماعيل صيني

١٤٣٣هـ

الطبعة الخامسة

الكتاب **وقف**، يمكن إعادة طباعته بأي لغة للبيع أو للتوزيع المجاني.
وللحصول على الطبعة لأخيرة أو الإنقليزية أو لإجراء بعض التعديلات
يُنسّق مع المؤلف على العنوان التالي:
sisieny@hotmail.com

يطلب من:

١- دار الهديان للنشر والتوزيع
ص. ب. ١٥٠٣١، الرياض ١١٤٤٤
تلفون: ٤٦١٣٩١١ فاكس: ٤٦٣١٦٨٥
EM: quran@istar.com

٢- مكتبة دار الفجر الإسلامية
ص. ب. ٣٨٤٨، المدينة المنورة
تلفون: ٨٢٢٠٦١٧ ، فاكس: ٨٢٦٦٧٥٢


بسم الله الرحمن الرحيم



قائمة المحتويات

مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله رحمة للعالمين. ورضي الله عن أصحاب محمد الميامين وعن جميع حواريي الأنبياء المخلَصين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

من الأخطاء الشائعة نقد مصداقية التشريعات الربانية ومحاكمتها، بالاستناد إلى قدراتنا العقلية ذات الوسائل المحدودة في الإدراك والاستيعاب. فحاسة السمع والبصر والشم ... عند الإنسان حتى مع استعمال أحدث الوسائل التي تُقوِّيها لا تزال عاجزة عن إدراك الكثير من الأشياء التي نعيش بينها ومعها.

في الواقع، هناك نوعان مختلفان من المناهج لتوثيق المعرفة التي نكتسبها: المنهج النقلي والمنهج العقلي. ويعتمد المنهج النقلي على مصداقية من ينقل إلينا المعرفة المحددة سواء أكان واحدا أم أكثر، وسواء أكان سلسلة من الأفراد أم من الجماعات. وأما المنهج العقلي فيعتمد بصورة رئيسة على ما تدركه حواسنا الخمس وما تُوصلنا إليه قدراتنا الاستنتاجية عند الاطلاع على تلك المعرفة.

وعندما يتعلق الأمر خاصة بالمعلومات المنسوبة إلى الخالق تعالى مباشرة، مثل الكتب المقدسة، فإن الجيل الثاني الذي لم يعايش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجد مفرا من ترجيح كفة أدلة المنهج النقلي عند توفرها، ثم تأتي بعد ذلك أدلة المنهج العقلي. وذلك لأننا عندما نستعرض


تاريخ تطور العلم نجد أن البشر لم يتمكنوا من فهم كثير من الأشياء الطبيعية الموجودة منذ الأزل إلا بصورة متدرجة عبر العصور الطويلة ومن خلال الجهود المضنية. ولا يزال الكثير مما أوجده الخالق سبحانه غامضا، لم يتمكن العقل البشري المحدود من التعرف عليه أو اكتشاف حقيقته أو فهمه. وكثير من الاكتشافات العلمية تثير الاستغراب والشك، ولكنا نثق فيها لثقتنا في المصادر التي وصلتنا عن طريقها، مثل المراكز العلمية والعلماء المختصين، أي نحن نتقبلها ليست لأن الأدلة العقلية العادية تثبت وجودها، ولكن لأن الأدلة النقلية هي التي تثبت وجودها.

ومن الأخطاء البارزة أيضا أن يحيط الإنسان بجزء محدود من نظام بديع عظيم متكامل وشامل ويتجرأ على نقد هذه الجزئية الصغيرة، مستندا إلى معلوماته المحدودة وقدراته العقلية المحدودة. وتعظم خطورة هذه الأخطاء إذا كانت هذه النصوص مقدسة ونسبتها إلى الخالق ثابتة بشكل قطعي أو شبه قطعي. ومثالها أن يناقش الباحث بعض التشريعات الإسلامية المتعلقة ببعض شؤون الحياة، دون النظر في علاقتها بالتشريعات في المجالات الأخرى وعلاقة هذه الأخيرة بها. ومن يناقش بعض أجزاء التشريع متغافلا أو متجاهلا سياقه الطبيعي، فإنه يشبه من يقوم بتقويم جزء من النظام المتناسق المتكامل متجاهلا الأجزاء التي تكمِّلها. وكأني به يقول مثلا: ما فائدة الليل والظلام الذي يثير فينا الرهبة أو الرعب ويكلفنا الكثير لإضاءته، متجاهلا أنه لولا الليل والظلام لما عُرِف النهار ولا الضوء، ولما عرفنا قيمتهما.

وقد يحدث هـذا الخطأ، أي خلع بعض المدلـولات على النصوص بعـد تجريدهـا من سـياقاتها الطبيعيـة ليس بسـبب الجهل ولكن بسـبب التهاون أو التحيز لرأي محدد.

ومثـال هذا الخطـأ أن يناقش الباحث بعض التشـريعات السـماوية، ومنها الإسلامية من منظور الحياة الدنيا فقط، أو من منظور يُغفل العلاقة بين الحياة الدنيا المؤقتة وبين الحياة الآخرة الأبدية. فالحياة الدنيا ليست سـوى مزرعة للحياة في الآخرة. وما نزرعه في الدنيا نحصد منه شيئا يسيرا فيها، فالعبرة بما نحصده في الحياة الآخرة.

ونتيجة لهذه الأخطاء يخرج هؤلاء الباحثون بمدلولات قد تختلف أو تتعارض تماما مع المقصود الصحيح. ولهذا، فإن العاقل عندما ينقد أجزاء من النصوص المقدسة أو يقوم بعملية تقويم لها، فإنه لابد أن يتعرف أولا على وظيفة هذه الأجزاء في النظام بأكمله قبل أن يمدحه أو يقدح فيه.

ومن الأخطاء الشائعة أن يحكم الإنسان على الإسلام من خلال سلوك المنتمين إليه فحسـب، بدلا من نصوصه المقدسة. فهناك فرق واضح بين الإسلام أو أي دين وبين المنتمين إليه بتطرف أو بصدق أو بالاسم.

وعمومـا، فـإن الكتـاب يهـدف إلـى التعريـف بالقضايـا الكليـة في الإسـلام باختصار شـديد وبأسـلوب منطقي مبسـط. وتم ذلك بالإجابة على التساؤلات السـاخنة، في مجالات العقيدة والعبادات والتشريعات، والدعوة، وحقوق الإنسان، والمرأة، والإرهاب والعنف، والتطرف.

وقـد حرص المؤلف عنـد إعداد الكتاب على اختيار الأسـئلة الأكثر

ورودا على ألسنة غير المسلمين، والمسلمين أيضا، واستعان بأمثلة من الواقع لمناقشتها وتوضيحها، باختصار، مع الاقتصاد في استخدام الأدلة النقلية. كما اقتصر المؤلف على الرأي المرجح عند اختلاف الآراء بسبب الاختلاف في الفهم، والحرص على عرض وجهات النظر المتعارضة وأدلتها عند وجود التعارض. وتم استبعاد المعلومات غير وثيقة الصلة بالتعاليم الإسلامية نفسها بناء على اقتراح بعض القراء.

وقد قامت رابطة العالم الإسلامي بنشر الطبعة الأولى للكتاب بعنوان «تساؤلات حول الإسلام وتعليقات» عام ١٤٢٣ للهجرة. وكان يناقش نصف الأسئلة المضمنة في هذه الطبعة. و قد أعدّه المؤلف عندما كان مستشارا بها، بناء على طلب أمين عامها، معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الذي يُجهد من يعمل معه بإخلاص لأفكاره المتدفقة التي لا تنضب.

والكتاب ليس إلا ملخصا لثمار الاستفادة من كل ما اطلع عليه، المؤلف إضافة إلى أبحاثه العديدة وتجاربه في مناقشة موضوعاتها مع الآخرين.

وأشكر جميع من استفدت من مؤلفاتهم ومن ملاحظاتهم، والشكر والمنة لله أولا وآخرا على نعمه التي لا أحصيها، كما أشكر أي ملاحظة محددة لتحسين الكتاب. وأسأل الله أن يجزل الثواب لكل من أسهم بجهد أو مال أو رأي في إنجازه وفي نشره، وأن ينفع بهذا الكتاب جميع عباده.

د. سعيد إسماعيل صيني

المدينة المنورة ١/٦/١٤٣٣هـ

sisieny@hotmail.com

الفصل الأول

الإسلام عقيدة وعبادات وشريعة

الإسلام مجموعة من المعتقدات والعبادات والتشريعات والمبادئ الأخلاقية. وهو الصيغة الأخيرة للرسالة الربانية التي جاء بها آدم عليه السلام وقام بتجديدها رسل الله الذين جاءوا من بعده ومنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام جميعا. وهذه الرسالات جميعها تدعو إلى ما يحقق السعادة للبشرية في الحياة المؤقتة وفي الحياة الأبدية، ولكن كل رسالة منها كانت تتسق مع البيئة الزمانية والمكانية التي جاءت فيها. وجاء الإسلام رحمة لجميع المخلوقات المكلفة (الجن والإنس) وخاتم الرسالات السماوية كلها. يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] ويقول ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾.[2]

ما المعتقدات والعبادات الأساسية؟

إن المعتقدات الأساسية في الإسلام ترتكز على الحقيقة التي تؤكد بأن الحياة الدنيا ليست قصة كاملة. وذلك لأسباب منها: أن بعض الناس يولدون ليستمتعوا بذكائهم أو بالثروة التي يرثونها، بينما آخرون يولدون ليعانوا من بلادتهم أو فقرهم. ويصبح البعض ضحايا عدوان آخرين قد

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٠.

يفلتون من العقوبة في هذه الدنيا. كما أن البعض ينعمون بحظوظهم الطيبة وآخرون يشقون بحظوظهم السيئة طوال حياتهم. إذا كانت هذه الحياة هي كل شيء، فأين العدالة إذًا؟ ولهذا يؤكد الإسلام وجود حياة أبدية تتم فيها المحاسبة النهائية وتتحقق فيها العدالة المطلقة.

إن المعتقدات الأساسية الأصلية ثابتة عبر الرسالات السماوية السابقة، وهي حسب الإسلام تتمثل في الإيمان بوحدانية الخالق ووجوب طاعته وصرف العبادة له وحده. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.[١] وتتمثل المعتقدات الأساسية في الإيمان بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.[٢]

وتتكون العبادات الأساسية من أركان الإسلام، أي الإقرار بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.[٣] وهي عبادات متصلة بحياة الإنسان اليومية. فالصلاة خمس مرات، في أوقات محددة، وبشروط منها الطهارة والوضوء، تدرب الإنسان على العناية بالوقت وبالنظافة وبالتنظيم. وهي أيضا تنبهه إلى ضرورة الإخلاص والتركيز فيما يؤديه الإنسان من عمل، وإلى ما لخالقه عليه من حقوق... وتذكّر الزكاة الإنسان بحقوق بني جنسه من البشر، ويذكر الصيام بضرورة

---

(١) سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.؛ وصحيح مسلم: الإيمان.

(٣) صحيح مسلم: الإيمان.

الإشفاق على المخلوقات المحرومة التي لا تؤذي الآخرين. ويذكّر الحج بضرورة التواصل والاجتماع والتعاون بين الناس.

وصحيح أن بعض الأعمال في العبادات الإسلامية تشبه في ظاهرها الطقوس الوثنية، مثل الصلاة إلى الكعبة والطواف بها. بيد أن هناك فرقا شاسعا بين الاثنين. فالطقوس الإسلامية ذات المظهر غير المنطقي هي أوامر ربانية ثابتة.(١) لهذا فإن القيام بها يعني الطاعة التامة لله سبحانه وتعالى. أما الطقوس التي يحدثها الناس، سواء أكانت منطقية أم غير منطقية، فإنها انحرافات عن التعاليم الربانية الأصلية.

ويلاحظ أن العبادات الأساسية ومكوناتها الأساسية لا تتأثر بتغير وسائل العيش وظروف الحياة المتجددة إلا في الحدود الضيقة رأفة بالإنسان (مثل قصر الصلاة في السفر، وتأجيل الصيام إلى أيام أخر). فهي ثابتة منذ أن جاء بها الإسلام، وقريبة من المعتقدات التي لا تخضع للتعديل، ولو بصفة مؤقتة.

أما التشريعات الخاصة بالعلاقة بين البشر فقد تتأثر بأساليب المعيشة ووسائلها المتغيرة والمتجددة، ولكن لأن الإسلام خاتم الرسالات السماوية وللعالمين جميعا فقد كفل لها خالق الكون صفات تجعلها قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان.

كيف يمكن تطبيق شريعة جاءت قبل أربعة عشر قرنا؟

نعم، قد يستغرب البعض من أن الإسلام جاء قبل أربعة عشر قرنا ومع

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

هذا تصلح تشريعاته لهذا العصر. وهنا ينسى هؤلاء أن البشر استطاعوا وضع مبادئ دستورية دامت القرون الطويلة فكيف بخالق هذا الكون وخالق الإنسان الذي يعلم ما كان وما سيكون ولا تخفى عليه خافية؟

ما حكم طرح المسلم هذا السؤال؟

إن المتسائل من المسلمين ينسى أن انتماءه إلى الإسلام يقتضي إيمانه -بدون جدل- بأن التشريع الرباني المحدد مادام منسوبا إلى الخالق بصورة قطعية أو شبه قطعية ودلالته صريحة فإن مجرد شكه قد يؤدي به إلى الكفر ويعرضه للعقوبة الشديدة. فالله الذي خلق السنن الكونية منذ الأزل قادر على أن يضع تشريعات صالحة للتطبيق إلى يوم القيامة. ولهذا ينبغي أن لا يتجرأ الخلق على مناقشة ما شرعه الله، خالقهم وخالق كل شيء. وذلك لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.[١]

وينسى المسلم الذي يطرح هذا السؤال أنه لا يملك حرية الاختيار بين أوامر الله، يأخذ منها ما يشاء ويتجاهل منها ما يشاء، وذلك لقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.[٢]

---

(١) سورة النساء: ٦٥. وانظر: ٥٩، ١٠٥؛ سورة آل عمران: ٢٣-٢٤؛ المائدة: ٥٠؛ الأنعام: ٥٧، ١٠٥؛ يوسف: ٤٠؛ الشورى: ١٠؛ النور: ٤٧- ٤٨، ٥١.

(٢) سورة البقرة: ٨٥.

وهنا تنبغي الإشارة إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة أنواع من التسليم:

١ . التسليم لتشريع الله كمبدأ عام، ويشمل التسليم لكل ما تثبت نسبته إلى الله، سواء أكان صراحة أم عن طريق الاستنباط أو القياس.

٢ . التسليم للنصوص قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، وينبغي التسليم لها تسليما لا مناقشة فيه.

٣. التسليم لبعض المدارس الفقهية أو الآراء الفقهية بصفتها هي التي تمثل الإسلام دون غيرها. وهذا التسليم لا يجوز إلا على وجه الترجيح -حسب علم المسلم- وليس على وجه الجزم. فالتعدد المقبول في الآراء أمر ثابت في السنة.

ومن زاوية أخرى، فإنه نظرا لضرورة تجنب التعارض بين الأحكام الصادرة عن المحاكم الرسمية في الدولة الواحدة، قدر الإمكان، فإنه يجوز تقنين الشريعة، أي توحيد مصادر الاجتهادات المقبولة رسميا في تلك الدولة، سواء بتحديد المذهب المشهور المعتمد أو المراجع المعتمدة.(١)

وهذا بالتأكيد لا يعني أن جميع القضاة سيصلون إلى رأي واحد في جميع القضايا، وذلك لأن عوامل التعدد كثيرة.

والمسلم الحق يؤمن بأن هذه التشريعات كفيلة بتحقيق السعادة والسلام في الدنيا للمخلوقات المكلفة كلها(٢) أو المجموعة المحددة

(١) القاسم ص ٢٣٣-٢٧٣.

(٢) المخلوقات التي منحها الله: حرية الاختيار بين الشر والخير، وزودها بالهداية بواسطة الرسل، ومنحها القدرة على استيعاب هذه الهداية والعمل بموجبها؛ وهم الجن والإنس. انظر

إذا عمل بها معظمهم. وهي كفيلة بتحقيق السعادة في الدنيا وفي الآخرة إذا عمل الإنسان بمعظمها. وبعبارة أخرى، فإن أثر الشريعة الإسلامية لا يقتصر على الحياة المؤقتة في الدنيا، بل يشمل الحياة الأبدية. ولا يمكن للمسلم حقا تجاهل هذه المعتقدات. فالمسلم إذا ثبت لديه أن هذه التشريعات هي من عند الله فإنه لابد أن يؤمن بأنها أفضل من أي تشريع قد يتوصل إليه الإنسان بمحض اجتهاده. فالله هو خالق الناس وأعلم بما يجعلهم مؤهلين للسعادة في الحياة المؤقتة وفي الحياة الأبدية.

ويشمل الإسلام القواعد العامة والتفصيلية التي تغطي مختلف جوانب الحياة الدنيا، بما في ذلك المعتقدات والعبادات والمعاملات والآداب العامة. وهو وحدة تشريعية ربانية متناسقة تعالج المكونات الأساسية للإنسان، وتحدد نوع العلاقة بين الخالق والمخلوق، ونوع العلاقة بين المخلوقات.

ولم يترك الإسلام مجالا من مجالات الحياة إلا وقد وضع لها القواعد اللازمة التي تتسق مع مجموعة القواعد الرئيسة الأخرى لتشير إلى وحدانية الخالق المشرع. وتقوم القاعدة الرئيسة بوظيفة المحور الذي تتفرع عنه مجموعة القواعد الفرعية، أو الاستثناءات.

وسيتضح أثناء المناقشة للموضوعات المختلفة أن الإسلام أقدر على الموازنة بين الواقع والمثالية، وأقدر على الموازنة بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة، وأقدر على الموازنة بين مطالب الحياة المؤقتة

للتفاصيل إسماعيل، كشف الغيوم عن القضاء والقدر.

ومطالب الحياة الأبدية. كما سيتبين لنا أن التشريعات الإسلامية أثبتت قبل أربعة عشر قرنا، حقوقا للضعفاء لم تضمنها التشريعات البشرية إلا في قرون متأخرة ولا تزال قاصرة عن إثبات بعضها.

ما نوع العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين الواقع؟

صحيح أن البشر بما منحهم الله من الفطرة السليمة والمعرفة المكتسبة يمكنهم إدراك بعض أسرار التشريعات الربانية، ولكن ليس لهم الادعاء بأنهم مؤهلون لمعرفة حكمة التشريعات الربانية كلها أو معرفتها معرفة تامة. وبعبارة أخرى، فإن عدم إدراكنا لأسرار بعض التشريعات الربانية ليس دليلا على عدم صلاحيتها أو كفاءتها في التعامل مع الواقع المتغير.

إن من يدقق النظر حتى في بعض العبادات، يلاحظ ظاهرة التفاعل بين النصوص والواقع بارزة. فعند تعذر الماء يغني التيمم عن الوضوء والغسل. والمقيم مثلا عليه أن يصلي أربع ركعات في صلاة الظهر والعصر والعشاء، أما المسافر فيكفيه أن يصلي ركعتين فقط في هذه الأوقات.

ومن يتتبع نزول الوحي وكثيراً من الأحكام الشرعية يجد ظاهرة التفاعل بين النصوص والواقع بارزة أيضا. فقد استغرق نزول التشريعات ثلاثا وعشرين عاما. وتم تحريم الخمر مثلا، على مراحل.

كما تبرز هذه الظاهرة في الاختلاف المقبول بين فقهاء المسلمين في كثير من القضايا لأسباب مقبولة.

ويضاف إلى صور التفاعل بين النصوص والواقع - في عهد النبي صلى الله عليه وسلم- ما يتعلق بالناسخ والمنسوخ، حيث ينسخ نص

أحدث نصا أقدم يرتبط كلاهما بوقائع متماثلة.

وهنا يبدو من المناسب التأكيد على أن هناك فرقا بين إلغاء الحكم المحدد المنصوص عليه صراحة وبين إيقاف تطبيقه في حالة من الحالات لعدم توفر شروط تطبيقه. ومن هذه الحالات الشهيرة التي تم فيها إيقاف التطبيق مع عدم نسخ الحكم ما ثبت عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، بالنسبة لنصيب المؤلفة قلوبهم، في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فقد كان بعض الكافرين يحاولون استغلال نصيب المؤلفة قلوبهم مع إصرارهم على رفض الإسلام وقد اتضح الحق وعز الإسلام بأنصاره.[١] ويندرج فيها أيضا إيقافه حد السرقة في عام المجاعة.[٢]

فعمر رضي الله عنه هنا، لم يلغ هذه الأحكام - كما يحب البعض أن يفهم عن قصد أو غير قصد - ولكن رأى عدم توفر شروط تطبيق الحكم غير المنسوخ فتوقف عن تطبيقه. فهناك فرق بين إلغاء الحكم والتوقف عن تطبيقه لعدم توفر بعض الشروط.

وهناك شبهة أخرى؛ وهي أن موافقة عمر ابن الخطاب على إسقاط «الجزية» عن نصارى بني تغلب لم يكن إلغاء للجزية المفروضة، ولكن تغييرا للتسمية وتعديلا في الكمية، إذ أخذ منهم ضعف الزكاة.[٣] وهناك فرق بين إلغاء الحكم والتعديل الخفيف لتحقيق مصلحة عامة متيقنة.

والضريبة التي قد تفرضها الدولة الإسلامية اليوم على المسلم قد

---

(١) النحوي، الشورى ص ٤٣٨.

(٢) مسند الشافعي ج١: ٢٢٤.

(٣) أبو يوسف ص ١٢٩-١٣٠.

تستنفد مدخراته التي يحول عليها الحول، فلا يحتاج إلى دفع الزكاة؛ وقد تـأتي على بعضها فتنقص من مقدارها. كما يندرج ما كان يسـمى بالجزية المفروضـة على المواطن غير المسـلم في الضريبة السـنوية أو في غيرها، ولا يمثل إلا جزءا ضئيلا منها.

ويلاحظ من هذه التطبيقات حكمة عمر ابن الخطاب الحاكم المُلهَم وحرصـه على تطبيق الشـريعة بأحسـن الطرق. فقد اقتضـت حكمة رب العالميـن إنزال شـريعته على مراحـل وتدريجيا. وهـذه الحقائق تفرض على الحكومة الإسلامية أن تكون حكيمة في تطبيقها للشريعة الإسلامية، إذا جاءت بعد فترة انتكاسة في التطبيق. فالحكمة تقتضي التدرج في عملية الإصلاح إذا أمسـكوا بالسلطة، وليس التعجل الذي يؤدي -في الغالب- إلى نتائج عكسـية. كمـا تقتضي الحكمة التغاضي عن بعض المسـميات أو الشـعارات الأجنبيـة مادام هذا الإجراء سـيؤدي في النهايـة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية.

ما أبرز أسباب ديمومة الشريعة الإسلامية؟

صحيح أن التشـريعات الخاصة بالعلاقة بين البشـر قد تتأثر بأساليب المعيشـة ووسـائلها المتغيـرة والمتجددة، ولكن لما كان الإسـلام خاتم الرسـالات السـماوية وموجهـا للعالمين جميعـا فقد كفـل خالق الكون لهذه الرسالة صفات تجعلها قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان. ومن هذه الصفات ما يلي: [١]

(١) وانظر مثلا: القاسم ص ١٩٧- ٢٠٤.

أولا – جعل الله القواعد الأساسية للتشريع ترتكز على المكونات الأساسية لفطرة المخلوق المكلف، مثل العنصر الروحي والعقلي، والنفسي، والعضوي، واحتياجاتها الأساسية الثابتة. ومن هذه الاحتياجات أن جميع المخلوقات تحتاج إلى قوة خفية قادرة على توفير الخير لها ودفع الشر عنها، وتحتاج إلى معلومات وقدرة عقلية تمكنها من التعامل بكفاءة مع البيئة التي تحيط بها. ويحتاج جميعها إلى الطعام والشراب.

ثانيا – جعل النصوص عالية المصداقية (القرآن الكريم وجزء من السنة) تركز على القواعد الأساسية للتشريعات. فهي المحاور التي تدور حولها التشريعات التفصيلية والاستثناءات. ومن هذه القواعد التي تعتبر من الثوابت: وجوب طاعة الله فيما أمر به ونهى عنه، وضرورة العدل وتحريم الظلم، وكون الزواج هو الصيغة الوحيدة للتعاون الأكمل المشروع بين الذكور والإناث.

فالتغييرات في الغالب لا تلمس إلا أساليب الحياة ووسائلها، ولكن الاحتياجات الأساسية للإنسان لا تتغير.

ثالثـًا: فصّل الإسلام بعض الأحكام، واعتبرها أيضا من الثوابت التي لا تخضع للتغيير، مثل الواجبات والمحرمات بصورة قطعية. وهذه نسميها بالثوابت مقارنة بغيرها التي يمكن إدراجها في المتغيرات أو الخصوصيات، مثل المستحبات والمكروهات والمباحات.

فالتغيير والتجديد وإن كان لا يلامس إلا أساليب العيش ووسائله ينبغي أن لا يخرج عن الفطرة التي جاءت التشريعات الربانية لمساندتها

والتذكير بها. فالفطرة هي التي توازن بين احتياجات السعادة في الدنيا واحتياجات السعادة في الآخرة. والتشريعات الربانية هي التي تقرر ما هو مباح ولا يخل بالفطرة وما هو مضر للإنسان ويفسد الفطرة. فخالق الكون المحيط بكل شيء علما أعلم بالوسائل الأكثر فاعلية في حفظ الفطرة وما يصلح خللها.

أما أمزجة الناس وأذواقهم وأهواؤهم فهي ليست مؤهلة لأن تكون الحكَم في الأمور التي لا يحيط الإنسان بحقيقتها إحاطة تامة أو كافية، وذلك بصرف النظر عن التقدم العلمي في بعض المجالات. فمعرفة الإنسان وقدراته على الإدراك والإحاطة بالوسط المحسوس الذي يعيش فيه محدودة. وقدراته للإحاطة بما هو غير محسوس، أي ما لا يمكن إدراكه بالحواس الخمس أكثر ضعفا. ولهذا فهو يجهل الكثير منها حتى مع الاكتشافات العلمية الهائلة مع أنه مضطر إلى التعامل معها.

رابعًا: جعل الخالق المصادر الرئيسة للتشريعات فيما يلي:

١. القرآن الكريم. وهو كلام الله مضمونا وقالبا. ويتم حفظه رواية، أي سماعا من حافظ إلى حافظ إلى أن يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، بواسطة سلاسل من الرواة متعددة. وهذا إضافة إلى حفظه كتابة.

٢. السنة النبوية. وهي أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراراته، أي مجموعة من التطبيقات العملية لما ورد في القرآن الكريم ولما نزل عليه من الوحي غير المباشر في كافة مجالات الحياة. وقد تم حفظه سماعا وتسجيله باستخدام قواعد للتحقق من نسبته إلى الرسول

صلى الله عليه وسلم تتراوح بين الصارم والجيد، بحسب منهج من قام بالتسجيل. وقد تم تسجيل معظم السنة بقواعد صارمة.

٣. الاجتهاد. ويتضمن تفسير ما يحتاج إلى تفسير من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية والاستنباط منهما لحل مشكلات الحياة في الواقع. فالاجتهاد هي عملية استنتاج الأحكام التطبيقية المستمدة من الكتاب والسنة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ويندرج فيه القياس على أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية للوصول إلى الأحكام اللازمة التي لم ترد في الكتاب أو في السنة. كما يندرج فيه استخدام العقل المحض أو الفطرة السليمة، لمواجهة قضايا الحياة المتنوعة والمتجددة، بشرط عدم تعارض هذه الاجتهادات مع الفهم الصحيح لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الموثقة. ومثال ذلك الاحتكام إلى الأعراف المحلية التي تسهم في منح التشريع الإسلامي قدرة على التكيف مع البيئات المختلفة.

وبعبارة أخرى، يندرج تحت الاجتهاد المصادر التي تسمى: [١] القياس [٢] والاستحسان [٣] والعرف[٤] والمصالح المرسلة[٥] وسد

---

(١) انظر مثلا أبو زهرة ص ٢١٨-٣٠٥؛ يعقوب ص ١٢٨-٢٣٧؛ الريسوني للاستحسان ص ٨٠-٩٠.

(٢) هو قياس مسألة فقهية ليس لها حكم على مسألة فقهية مماثلة في العلة لها حكم في الكتاب أوالسنة، وذلك لاشتراكهما في العلة. ومثاله عدم توريث الموصَى له إذا قتل الموصِي قياسا على عدم توريث الوارث إذا قتل مورثه.

(٣) الاستحسان هو العدول بحكم المسألة عن نظائرها لتحقيقه مصلحة لا تعارضها النصوص.

(٤) العرف ما اعتاده الناس من معاملات واستقامت عليه أمورهم.

(٥) المصلحة المرسلة هي المصلحة المعترف بها، ولكنها لم ترد في الكتاب والسنة.

الذرائع[١] والاستصحاب.[٢] وهذه مصادر يقوم العقل فيها بدور رئيس.

وهذه المصادر تترك مجالا واسعا للمرونة والتعدد في الآراء المقبولة وفي تفاعل النصوص مع الواقع المتغير من حيث أساليب الحياة ووسائلها.

ويختلف هذا تماما عن الاعتماد كلية على العقل البشري القاصر، وتحريف القيم عن الفطرة البشرية، وتكييف الأحكام حسب أهواء أغلبيةٍ[٣]من البشر وأذواقهم التي قد تنحرف نسبيا أو بالكلية عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. فالمقياس الذي يفصل بين الاجتهاد المقبول منها والمرفوض - في الإسلام - ليس المزاج البشري وهواه، ولكن الوحي الرباني والاجتهاد المسترشد به.

وهنا نلاحظ أن الاجتهاد في الشريعة الإسلامية يحتاج إلى أدوات ينبغي توفرها لدى المجتهد. ولعل مما يجسد هذه الحقيقة المثال التالي: هناك حديث نبوي يقول «**إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَفِي الأخرى شِفَاءً**».[٤] وقد يفهم أحدهم أن هذا الحديث، وقد جاء بصيغة الأمر، أنه ملزم، لعدم فهمه شيئا في أصول التشريع الإسلامي. وقد يذهب أبعد من ذلك فيعتقد أن

(١) سد الذرائع هو تحريم الوسيلة التي تؤدي في الغالب إلى ارتكاب محرم.

(٢) الاستصحاب ليس للوصول إلى قاعدة شرعية جديدة، ولكن لتشخيص الواقع. ومثاله إذا كان لدينا دليل بأن فلانا قد تزوج بفلانة، فهما متزوجان إلا أن يأتينا دليل يثبت طلاقهما.

(٣) الأغلبية قد تكون صحيحة وقد تكون أغلبية زائفة بسبب الزيادة المحدودة او المزيفة عمدا أو بسبب تطور وسائل الإقناع وأساليبه في عصر الاتصال الجماهيري، سواء أكانت إقناعا بالتهديد الصريح أو المبطن أو الإغراء بالمال أو الحصول على مصلحة.

(٤) صحيح البخاري: بدء الخلق.

الحديث يصلح مستندا للتنازل عن النظافة في المأكولات المعروضة في الأسواق. وقد يقصد هذا الشخص الاستهزاء بالحديث فلا يستهزئ إلا بنفسه. وقد يكون مخلصا فهو يحتاج إلى تعلم القواعد اللازمة لفهم التشريع الإسلامي. فالحديث يكشف عن حقيقة علمية ويرشد إلى طريقة الاستفادة منها بالنسبة للشراب فقط، إذا رغب الإنسان في ذلك. وليس تعميمها بطريقة عشوائية، تهدد حياة الناس.

وقد يستغرب بعض المسلمين من هذا الحديث النبوي والحديث الآخر الذي يفيد بأن أبوال الإبل تعالج بعض الأمراض.[1] مع أنهما حديثان صحيحان. وفي الوقت نفسه يصدقون الاستكشافات البشرية التي تفيد، مثلا بأن سم الأفاعي يُعتبر مصلا ذا طبيعة وقائية وعلاجية.

وقد تكون خلفية هذا المسلم عن التشريعات الغربية ممتازة، ولكن معلوماته عن التشريع الإسلامي محدودة، فيغفل عن القواعد التشريعية الأخرى التي ينبغي مراعاتها مثل: النظافة من الإيمان، ولا ضرر ولا ضرار. ويحدث هذا في الغالب بسبب تعودّ المسلم على النظر إلى النصوص الإسلامية بمنظار التشريع اللاديني فيختلط عليه الأمر. ولو تأمل أفكاره هذه جيدا فربما أنكرها هو بنفسه.

٤. الإجماع. وهو نفسه الاجتهاد ولكنه الاجتهاد الذي يكتسب قوة إضافية بإجماع العلماء عليه في عصر محدد، مثل جيل الصحابة وجيل التابعين. وهو يأتي من حيث القوة بعد القرآن الكريم والسنة النبوية.

(١) صحيح البخاري: الجهاد والسير.

ويضعه علمـاء الأصول عادة بعدهما. فالترتيب الشـائع مبني على درجة القوة وليس على الترتيب التسلسلي، بصفتها أشياء متساوية.

ولهذا ليس من المسـتغرب أن تتوفر للتشـريع الإسلامي مرونة كافية للتعامل بكفاءة مع المشكلات المستجدة في الحياة. فهو وإن كان مؤسسا على قواعد راسخة تعود إلى قرون عديدة فإنه مرن بحيث يسمح بالتفاعل بطريقـة متقنـة مـع الواقع المتنـوع والمتجـدد. وتظهر المرونـة في صور متعددة، منها ما يلي:

١ – التعـدد المقبول في اعتماد بعـض النصوص ورفضها أو الترجيح بينهـا. وقضية غربلـة النصوص لا يكفيهـا الاقتصار علـى تحكيم العقل البشري القاصر. فهذا سيؤدي بالكثير إلى رفض حتى الاكتشافات العلمية مثل اسـتعمال سـم الثعبان القاتل مصلا ضد أمراض خطيرة. ولهذا لابد من الاعتماد على النقل الموثق أولا بالنسبة للنصوص المقدسة.

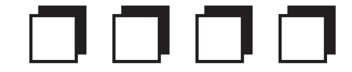
٢ – التعدد المقبول في تفسـير النصوص والاسـتنباط منها. فالمناهج قد تختلف ولـو قليلا، وكذلك تختلف المداخل والخلفيات الشـخصية من معلومات وتوجهات، وتختلف درجة الوعي بالسـياقات ودرجة فهم اللغة التي ورد بها النص.

٣ – التعدد المقبول في تشخيص الواقع. فكثير من الناس قد يختلفون في تشـخيص الواقـع رغم اسـتخدام الوسـائل الدقيقة المتوفـرة حتى في الأمور المادية المحسوسة.

٤ – التعدد المقبول في المطابقة بين النصوص والواقع، ومثال ذلك:

هل حكم الربا ينطبق على البيع بالتقسيط، إذا كان البائع بنكا يتعامل – في الأصـل – مع الأمـوال وليس في بيـع الأعيان؟ وهل تنـدرج جميع أنواع المسابقات ضمن القمار المحرم؟

٥ – التعدد المقبول في اختيار بعض المصادر الثانوية، مثل الاستحسان وعمل أهل المدينة، واعتماد أقوال الصحابة وشرع من كان قبلنا.



الفصل الثاني

القضاء والقدر والجهاد والولاء والبراء

عند الحديث عن المعتقدات الإسلامية يبدو أنه من الضروري الإجابة على بعض التساؤلات المتعلقة بعقيدة القضاء والقدر والجهاد والولاء والبراء. فهي مصطلحات لا تزال تثير تساؤلات عديدة. وقد شغلت قضية «القدر»، ذات الصلة بحرية الإنسان والمحاسبة على سلوكه، أذهان رجال الدين والفلسفة والفكر عبر التاريخ. كما يستخدم كثير من الناس «القدر» كبش فداء لأخطائهم التي تسبب لهم المتاعب. ويستخدمه البعض الآخر مبررا للبقاء عاطلين وأعضاء خاملين في مجتمعاتهم.[١]

وكثيرا ما ترد مصطلحات «الجهاد» و«الولاء» و«البراء» عند الحديث عن العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. وكثيرا ما يثير تساؤلات مبطنة بتهمة الإسلام بتشريع قوانين دولية تساعد الأقوياء الطامعين على الضعفاء المسالمين وبتشجيع النفاق، أي بالإحسان إلى الآخرين وبغضهم في آن واحد.[٢]

وعموما تتمثل التساؤلات الرئيسة حول هذه القضايا العقدية فيما يلي:

١- لماذا كان الإنسان مسؤولا عن سلوكه؟

٢- كيف يكون الإنسان مسؤولا، وأفعاله هي من خلق الله؟

٣- كيف يكون مسئولا ولا يجري شيء إلا بمشيئة الله؟

٤- كيف يحاسب وهو لا يستطيع مخالفة المكتوب؟

---

(١) إسماعيل، كشف الغيوم عن القضاء والقدر ص؛ صيني، الإنسان والقضاء والقدر ص ٤٢٣-٤٥٦.

(٢) صيني، حقيقة العلاقة، صيني، ص ٨٩-١١٠؛ العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

٥- كيف المحاسبة وما نوع المكافآت والعقوبات؟

٦- هل من معاني الجهاد قتال من يرفض الإسلام؟

٧- هل يعني «الولاء» النصرة والمحبة بالضرورة؟

٨- هل يعني «البراء» العداوة والبغضاء بالضرورة؟

لماذا كان الإنسان مسؤولا عن سلوكه؟

الإنسان مسؤول عن قراراته، أي هو مخلوق مكلف لأن الله خلقه وأنعم عليه بنعم عظيمة، ومنها أن جعله خليفة في الأرض[1] يستمتع بما فيها. واختبارا له، ألزمه بحدود ليس له تجاوزها، رغم مغريات السعادة المؤقتة، وذلك ليفوز بالسعادة الأبدية في الآخرة. وكان من أبرز النعم التي تميزه عن المخلوقات الأخرى: العقل المميز، والهداية، وحرية الاختيار.

فقد ميّز الله المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) **بالعقل** أو بالقدرة العالية في إدراك الأشياء التي تتعرض لحواسها الخمس، والتمييز بينها، وتخزينها لفترات طويلة، وتنمية معلومات إضافية منها للاستفادة الفورية أو الآجلة. وجعلها قادرة على استيعاب التعاليم الربانية التي تهديها إلى سبل الخير والنجاح والفلاح وتحذرها من سبل الشر والفشل. **فالعقل نعمة عظيمة تستحق ثمنا غاليا وتستوجب المحاسبة لمن يملكها**، وليس هناك مخلوق سوِيّ يفضل حالة الحرمان منها، أي أن يصبح مجنونا أو معتوها أو فاقدا للوعي طوال حياته، ويُعفى من المحاسبة.

ومنح الله المخلوقات المكلفة **الهداية** الفطرية، حيث يقول النبي

---

(١) سورة البقرة: ٣٠-٣٢.

صلى الله عليه وسلم «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...**»[١] وزود الله الإنسان بالهداية والإرشاد عبر رسله ليذكِّروه بالميثاق الذي قطعه على نفسه وليزوِّدوه بالإرشادات التفصيلية المناسبة لكل مرحلة من المراحل الرئيسة لحياته في الأرض.

ولا يشك عاقل بأن الله قد وهب المخلوقات المكلفة درجة كبيرة من **حرية الاختيار يستمتع بها**، تمكنه حتى من اختيار نوع الحياة الأبدية. يقول تعالى﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٢] ولإدراك عظم هذه النعمة ليس علينا سوى النظر في أسباب الحروب جميعها. فهي إما قتال على **حرية** التعبير أو **التصرف**، سواء أكان طلبا لها أو دفاعا عنها.

كيف يكون الإنسان مسؤولا، وأفعاله من خلق الله؟

تكمن الإجابة على هذا التساؤل في حقيقة كلمة القضاء ومشتقاتها ومرادفاتها وطبيعتها. ولعل من أبرز النصوص فيها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»،[٣] ومثال ذلك دعاء الثلاثة الذين حجزتهم في المغارة صخرة سدت مدخلها فدعوا الله فانزاحت قليلا حتى تمكنوا من الخروج.[٤] ومن النصوص قوله عليه الصلاة والسلام: «**فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**».[٥] وتعني كلمة «القضاء» ما يلي:

---

(١) البخاري: القدر، الله أعلم، وانظر سورة الأعراف ١٧٢.

(٢) سورة الكهف: ٢٩.

(٣) الترمذي: القدر.

(٤) انظر النووي، باب إخلاص النية. وانظر الصالح ج١: ٤٨-٥١.

(٥) ابن قيم الجوزية، الطب.

١. الأمـر الشـرعي، المفروض على العبـد الالتزام بـه، ولكن نعمة حرية الاختيار تمكنه من مخالفته.

٢. الأمر الكوني، أو السـنة الكونية ذات النتيجة الحتمية. ومثال الأمر الكـوني قوله تعالـى ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.[1] فكانت النتيجة أن أصبحت النار بردا وسـلاما على إبراهيم عليه السـلام. ويؤكد هـذه الحقيقة قوله تعالـى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾.[2] وقد يمثل القضاء السنن الكونية التي خلقها الله. وهـي تتكـون من جزئيـن: السـبب والنتيجـة الحتميـة. والمخلوق المكلف لا يحاسب على النتيجة الحتمية للسنة الكونية، إلا لأنه يُحاسب على اختيار السبب فيها.

ومثـال السـنة الكونية أو القانون الطبيعـي أن تلقي بحجر إلى الأعلى علـى سـمت قدمك (سـبب اخترته)، فيسـقط بفعـل السـنة الكونية، أي الجاذبيـة الأرضيـة، على قدمك (نتيجة حتميـة). ولا تتغير النتيجة إلا أن تسـتخدم سـنة كونية أخرى، مثل أن تحرك قدمك من موضعه أو أن تدفع الحجر الهابط بعيدا عن قدمك.

ومن السـنن الكونيـة المتعلقة بالإنسـان واختياراته أن فسـوق مترفي القـوم يؤدي إلـى تدميرهم، كما في قوله تعالـى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[3] وهو يشـبه قولنا

---

(١) سورة الأنبياء : ٦٩.

(٢) سورة البقرة: ١١٧؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٨٧-١٩٠.

(٣) الإسراء: ١٦؛ وانظر تفسير الآية مثلا في الطبري وابن كثير.

في المستوى البشري: إذا أردنا فتح القفل أدرنا المفتاح إلى اليمين، وإذا أردنا إغلاق القفل أدرنا المفتاح إلى اليسار. فهذا سبب مع نتيجته، ويمكن لأي أحد استعمال السبب عمدا أو تهاونا لتحصل النتيجة المحددة.

فالمقصود «بأمرنا» أي حدث سبب الهلاك وهو فسوق المترفين. فالسنة الكونية هنا تتكون من فسوق مترفي القوم (سبب) يضاف إليه تقصير الأغلبية في واجب الأمر بالمعروف (سبب آخر) فيكون هلاك تلك القرية (النتيجة). والأمثلة كثيرة في قصص الأنبياء ومترفي أقوامهم.[١] وهذه سنة كونية يحرص إبليس وأعوانه في تسخيرها لفتنة الناس عن الحق.

ومن السنن الكونية تتكون شبكة عظيمة محكمة من الأنظمة التلقائية (الأتوماتيكية) التي تخلق وتُسيِّر هذا الكون بمشيئة الله. فالله سبحانه وتعالى أوجد الكون، ويخلق كيف يشاء ما فيه ويسيِّره بقوله: كن فيكون (الأمر المباشر) وبالسنن الكونية أو النظم التلقائية التي خلقها. والسنن الكونية مختلفة من حيث القوة، ومتفاوتة من حيث شمولية التأثير. فالنار في وضع معين يمكنه تبخير الماء؛ ولكن الماء إذا تم صبه على النار يمكنها إطفاؤه. وعلى الرغم من أهمية الحرارة ومصادرها فإن الله جعل الماء عصب الحياة كلها، حيث يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.[٢]

ولتوضيح السنن الكونية، نأخذ نظاما تلقائيا، هي الساعة الأوتوماتيكية (التي تعمل تلقائيا) بدون تعشية يومية (شد يدوي على الزمبرك)، وبدون طاقة خارجية، مثل البطارية. هذه الساعة تعمل تلقائيا

(١) انظر مثلا النجار. وانظر للتعليق على الآية سيد قطب، ظلال ج٤: ٢٢١٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

لأنهـا مزودة بزمبركين، عندما ينفرط أحدهما بالتدريج يشـد على الآخر. فعملية انفراط الزمبرك الأول سـبب لعملية شـد الزمبرك الثاني. والاثنان يتبـادلان هذه الوظيفة بطريقة تلقائية متتابعـة لينتج عن ذلك نظام حركي تلقائـي. وتقـوم عمليـة الانفـراط بوظائف أخـرى متعددة مثـل تحريك تـرس عقرب السـاعة، وعقرب الدقائق، وعقرب الثواني، ومؤشـر اليوم، والتاريـخ. وهكـذا يتكون لدينا نظـام تلقائي يقوم بوظائـف ذاتية متعددة دون الحاجة إلى مساعدة من العوامل الخارجية.

ومـا دامـت السـاعة تعمـل فأنت تـدرك بأن أحـد الزمبركيـن ينفرط بالتدريج والآخر يُشـد عليه، أي تدرك شيئا غير محسوس. وأنت تستطيع التنبؤ بأن عقرب السـاعة الذي يشـير إلى الساعة الواحدة سيشير بعد فترة زمنيـة إلـى السـاعة الثانية...إلخ، أي تدرك شـيئا مسـتقبليا. ويلاحظ أن مبدع السـاعة يفقد السـيطرة عليها بعد صناعتها، أما خالـق الكون فيبقى مسيطرا على النظام الكوني الذي خلقه إلى الأبد.

نعـم خلـق الله الكون بما فيه الإنسـان وأفعاله بالأمر المباشـر وشـبكة السـنن الكونية التي تعمل بطريقة تلقائية. فالأمر كما ورد في قول الإمام أبي حنيفـة: «فلما كان الفاعل مخلوقا فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة».[1] وهذا يعني أن الإنسان لا يحاسب لأنه صنع أفعاله، بمعنى أنه أوجدها من العدم، ولكن يحاسب على الاختيار من بين الأسباب ذات النتائج الحتمية.

ولتتضح الصورة أكثر، افترض أن مدرسـا وضع أسـئلة ذات إجابات

---

(١) أبو حنيفة ص ٤٥.

اختياريـة، تجعل لكل سـؤال إجابات عديدة. وحتى يعطـي فرصة كافيـة للاختيـار وللتمييـز بين الدرجـات المتفاوتـة للاجتهاد وللاسـتفادة من الدروس، جعل الإجابات تتراوح بين الخاطئة تماما والصائبة تماما.

فالمدرس هو الذي صنع جميع احتمالات الإجابة. وهو يحب بعض الإجابات ويجيز بعضهـا، ويبغض بعضها الآخر. وتقتصر مهمة الطالب على الاختيار من هذه الإجابات، فيسـتحق المكافأة إن أحسـن الاختيار، ويسـتحق العقوبة إن أسـاء.[١] وأما المدرس فلا يلحقه أي لوم مع أنه هو الـذي وضع الإجابات الاختيارية كلها. بل يسـتحق الثناء لأنه أحسـن في إعداد الاختبار وأتقنه، حيث جعله يمثل جميع الإجابات المحتملة.

كيف يكون مسئولا ولا يجري شيء إلا بمشيئة الله؟

لقـد منح الله الإنسـان درجة من حرية الاختيار تتم عليها المحاسـبة، ولكن لا يسـتطيع عمل شـيء بدون مشيئة الله. يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.[٢]

فكيـف يكـون المخلوق المكلف مسـؤولا عن اختياراته ويحاسـب عليها؟

إذا وافقنـا بأن الله هو خالق الإنسـان وقدراته. وهـو الذي منحه النعم التـي يتمتع بها، بما في ذلـك الهداية والعقل وحرية الاختيـار، فإنه يلزمنا أن نوافـق على أن الله قادر على أن يسـتردها في أيـة لحظة، ولكن إن مكّن الإنسان من استعمالها وأخطأ فعليه تقع المسئولية.

---

(١) انظر مثلا ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٢٣.

(٢) سورة التكوير: ٢٩.

ولنزيل هـذا الغموض دعنا نأخذ المثال التالـي: افترض أن لديك أخا صغيرا يستطيع فهم الإرشادات (أي لديه عقل يميز به). وضعت أمامه طبقا فيـه طعام مفيد ولعبة ملوثة بالجراثيم. ثم أفهمته بأن الطعام مفيد لصحته، وأن اللعبـة ملوثـة بالجراثيـم ولـو لعب بها فإنه سـيصبح مريضـا (الهداية والإرشادات). ثم تركت له فرصة الاختيار بينهما (حرية الاختيار النسبية). وكل هذا وأنت تراقبه وهو تحت سـيطرتك، تستطيع في أي لحظة منعه من الاقتراب من اللعبة، وتستطيع أن ترغمه على اختيار الطعام لمصلحته. فإذا اختار اللعبة بمحض إرادته فإنه سيكون المسئول عن نتيجة الاختيار.

كيف يحاسب وهو لا يستطيع مخالفة المكتوب؟

لقـد وردت كلمة «القـدر» ومشـتقاتها ومرادفاتها في نصـوص كثيرة، ومنها إجابة النبي صلى الله عليه وسلم على سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان. فقد كانت أجابته هي: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسـله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.**»[1]

وعموما يلاحظ الإنسان أن هناك مدلولين لكلمة «القدر»: ١) القضاء أو الأمر الكوني، ٢) تحديد واقع الشـيء و التسجيل المتقن لما يجري في الواقع، من علم الله المطلق. وكما يقول أبو حنيفة «ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم»،[2] أي أن الله لا يحكم على عبده أن يفعل كذا وكذا، ولكن يأمر بتسـجيل وصفه تعالى لما سيفعله المخلوق وما سيحدث له، منذ الأزل، من علمه الذي لا يحده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة.

---

(١) مسلم: الإيمان، بيان الإيمان.

(٢) أبو حنيفة، الفقه ص ٣٩.

ومـن المعلوم أن علم المخلوق مقيد **بقيد الزمان،** أي يدرك الأشـياء مجـزأة على أجزاء صغيرة. فمثـلا لو أراد أن يعرف شـكل قطعة الورق الصغيرة فإنه يحتاج إلى فحص كل وجه بصورة مستقلة ويحتاج إلى فترة زمنية. ويمكن التمييز بين أربعة أنواع من علم المخلوقات:

١- علم اكتسبه في الماضي وهو عرضة للتشويه أو للنسيان.

٢- علـم يكتسـبه في حاضـره وهو أكثـره وضوحا. وقد تكـون المعلومة نفسـها، مثل نتيجة الامتحان، حاضرة لدى المعلم قبل إعلانه وتكون غيبا بالنسبة للطالب.

٣- علم سيكتسـبه في المسـتقبل عن شـيء سيوجد في المسـتقبل، ويبقى غيبيا حتى يصبح المستقبل حاضرا أو واقعا.

٤- تخيلات لمجموعة من الأشياء محتملة الحدوث إذا توفرت شروط حدوثها.

أما بالنسـبة لعلـم الله تعالى، فكل شـيء موجـود في الحاضر، وليس هناك ما يسمى ماض أو مستقبل أو محتمل.

ومن المعلـوم أن علم المخلوقات مقيد **بقيـد المكان،** وهذا ينعكس على علم المخلوق. فالناظر من مكان مرتفع -مثلا- يرى ما لا يراه الناظر من موقع منخفض. فبعض الأشـياء التي يدركهـا الأول وأصبحت جزءا من علمه تعتبر غيبيات، بالنسـبة للآخـر، وغير موجودة. وكذلك الواقف عند ملتقى شـارعين متعامدين يرى ما لا يراه الواقف في أحد الشـارعين، بعيدا عن نقطة التقائهما. فالشـارعان وما فيهما بالنسـبة للأول يعتبر علما محسوسا، أما بالنسبة للآخر فأحد الشوارع وما فيه يُعد من الغيبيات.

أما بالنسبة لعلم الله فلا يقيده قيد المكان أو الموقع، فليس هناك أشياء بعيدة أو مختفية وراء أشياء أخرى. بل كل شيء **حاضر**، فعلمه مطلق يحيط بكل شيء.

ومن المعلوم أن **حواس الإدراك** عند الإنسان محدودة، حتى أن بعض الحيوانات والحشرات لديها حواس أقوى من حواسه. فحدة نظر القطط في الظلام معروفة مثلا، وكذلك حدة حاسة الشم عند الكلاب لا تخفى على أحد.

وفي المقابل، فإن علم الله لا يقيده قيد الحواس المحدودة. فهو السميع البصير العليم وصفاته جميعها مطلقة. وعلمه مطلق حيث يقول تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾.(١)

والقدَر ليس إلا تسجيلا دقيقا متقنا لكل شيء يقع في الكون، من علم الله الذي لا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة للإدراك. وليس أوامر كونية، لا يمكن مخالفتها، ولكنها تسجيل لا يخطئ. ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه «لا ينفع الحذر من وقوع القدر».

ومثال ذلك أيضا – في مستوى البشر – أن تجمع معلومات دقيقة عن رحلة يقوم بها صديقك والأنشطة التي سيقوم بها، وتسجلها قبل سفره. فتحدث كما سجلتها؛ فهل نقول أنك أجبرته على فعلها؟

والمؤمن يعتقد جازما بأن الله لا يظلم أحدا، حيث يقول تعالى: ﴿ مَّنْ

---

(١) سورة يونس: ٦١.

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾.[1] وهـذا القـول الرباني صريح الدلالة قطعي الثبـوت. وقد يصادف القارئ للقرآن الكريم والسـنة النبوية الموثقة نصوصا يمكن فهمها بمعنى الجبر، ولكن عندما يعارضها بهذا النص تزول الحيرة فورا.

كيف الحساب وما نوع المكافآت والعقوبات؟

إن المؤمن يعتقد جازما بأن الله قد ميَّز المخلوقات المكلفة بإمكانات عظيمة وأنعم عليها بنعم غزيرة، لا تعد ولا تحصى. فجعلها مسؤولة عن هذه الإمكانات وهذه النعم التي يجب أن تحسن صيانتها واستثمارها.

ومـن الطبيعـي أن يترتب على هـذا التكليف العـادل والنعم العظيمة وجـود اختبـار متقن ومكفـآت وعقوبات عظيمـة. فكانت الحيـاة الدنيا التي نعيشـها داراً للاختبـار، وكانت الحياة الآخرة داراً للجزاء. وليسـت النعم والابتلاءات إلا عملات صعبة يجب أن نحسـن استثمارها في الدنيا المؤقتـة، لنجنـي ثمارها العظيمة في الحياة الأبدية. فإن أحسـن الإنسـان اسـتثمارها وسـخرها لخدمـة الآخـرة، مـع عدم نسـيان نصيبـه في الدنيا كما أمره ربه، اسـتحق المكافـأة العظيمة بالحسـنات. وهو إن صبر على الابتلاءات كما أمره ربه فإنها تكتب له حسنات.

وتتمثل صعوبة هذا الاختبار في أن النعيم المؤقت قد يتصادم مع النعيم الأبـدي، وأن طـرق الحصـول على النعيـم المؤقت محاطـة بالمغريات والشهوات، وأما طرق الحصـول على النعيم الأبدي فمحفوفة بالمكاره.

---

(١) سورة فصلت: ٤٦.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «حُجبت النار بالشهوات، وحُجبت الجنة بالمكاره.» أو حُفت في رواية أبي نعيم.[١] وعلى المخلوق المكلف أن يضحي أحيانا بنعيم الدنيا المؤقت الحاضر الزائل، ليفوز بنعيم الآخرة المؤجل الدائم. وعليه أن يتغلب على شهواته ويصبر على المكاره ليكون من الفائزين في هذا الاختبار. فالدنيا عند الله لا تساوى جيفة جدي مشوّه أو جناح بعوضة.[٢]

وعلى الإنسان أن يختار بين الحق المُرِّ ودعاته القلة، وبين الباطل عذب المذاق وأعوانه الكثر. وعليه أن يصمد أمام جهود إبليس وأعوانه من الجن والإنس الذين يعملون ليل نهار على إغوائه ليكون من الخاسرين في الآخرة.

ويلاحظ أن **المحاسبة ليست مبنية على الإنجاز، ولكن على المجهود** الذي يبذله الفرد في ضوء الإمكانات التي توفرت له أو أسهم في توفيرها بما منحه الله من قدرات. فقد لا يعيش الإنسان مثلا مدة طويلة، وربما نشأ في بيئة غير مسلمة ثم أسلم، ومع هذا فإن الفرصة أمامه مفتوحة لمنافسة من ولدته أمه مسلما، وقد يعيش طويلا وتوفرت له إمكانات فطرية وموروثة أفضل بكثير. فهما **سيتساويان، في النهاية، إذا بذل كلاهما أقصى جهدهما.**

إن العمر يشبه المدة المحددة للامتحان مع بعض الفوارق، ومنها أن المدة المحددة معلومة عند الطالب، وأن الطالب يحق له إنهاء امتحانه قبل نهاية المدة المحددة. أما بالنسبة لاختبار الحياة الدنيا فإن المدة

---

(١) البخاري، الرقاق، حجبت.

(٢) مسلم: الزهد والرائق؛ الترمذي: الزهد؛ ابن ماجة ج٢: ١٣٧٦.

المحددة للاختبار (العمر) مجهولة، وأنه لا يحق للعبد محاولة إنهاء حياته متى أراد. ولعل ذلك ليكون الاختبار جديرا بالمكافأة أو الجزاء الأبدي، وليكون العمل القليل جدا مؤهلا لتحديد المصير.

وقد يعترض الإنسان على مضمون الحديث النبوي الذي يفيد ب «إن العبد ليعمل عمل أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار. ويعمل عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها».(١) ولكن يزول هذا الاعتراض بالتمعن في المثال البشري التالي.

افترض أنك مدرس وكنت تصحح ورقة طالب أحسن الإجابة في البداية؛ ولكنه في نهاية الأمر شطب عليها وبدأ في كتابة إجابات خاطئة. فهل تعطيه الدرجات على آخر إجابة انتهى عندها الاختبار أو على الإجابات التي شطبها؟ مهما يكن السبب فالأصل أن تعطيه الدرجة التي يستحقها على الإجابة التي ثبت عليها في نهاية الاختبار.

والحد الفاصل بين النجاح والفشل يتمثل في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.(٢) والنجاح يتمثل في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.(٣)

والله غفور رحيم في محاسبته للمخلوق المكلف، يمهله ويمنحه الفرص

---

(١) البخاري: الرقاق، الأعمال بالخواتيم.

(٢) سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.

الكثيـرة للتوبـة وللرجوع إلـى الطريق السـوي، ولكن لا يهملـه. فقد يغفر الذنوب الكبيرة للمخلوق المكلف ما لم يشرك به أحدا في ألوهيته وربوبيته وأسـمائه وصفاته ويموت على ذلك. وقد يبدِّل الله سـيئاته حسنات، ولكن لاضمـان لأحد. فعلى المخلوق المكلف أن يبذل قصارى جهده لينجو من النـار ويفوز بالجنة في الحياة الأبدية، وذلك بأداء ما أمر الله به، وباجتناب ما نهى الله عنه، وبالإكثار من الأعمال التي يحبها الله من عبده.

ومكافـآت الآخرة عظيمة لدرجـة أن أعمالنا لا تفي بحقها، وعقوبات الآخـرة عظيمـة للجاحديـن ولمن يضيعـوا الفـرص الكثيـرة للتوبة دون الاستفادة منها. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: قال الله: أعددت لعبادي الصالحيـن ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشـر. فاقـرأوا إن شـئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.[١] وعقـاب الآخـرة شـديد لمن يضيـع جميع فـرص النجاح، ويتجاهل جميع الإرشادات وكل وسائل التنبيه والتذكير، ولا يستفيد منها. فأهون أهل النار عذابا من تُوضع تحت قدميه جمرة فيغلي منها دماغه.[٢]

ومـن زاوية أخرى، فإن المكافآت والعقوبات درجات تتفاوت تفاوتا عظيما ليتناسب مع ما يكسبه أو يقصر فيه المخلوق المكلف.

هل من معاني الجهاد قتال من يرفض الإسلام؟

إن هـذا المفهـوم للجهـاد يتعـارض مـع المدلـول الصحيـح لكلمة «جاهـد، يجاهـد» فالمجاهدة هي رَدّة فعل لشـيء يسـبقه، ويتفاعل معه

(١) سورة السجدة: ١٧؛ البخاري: بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة.

(٢) البخاري: الرقاق.

بصورة مستمرة، مثل قاوم يقاوم، وليس هاجم يهاجم ابتداء. وحتى إذا قلنا بأن القتال هو ردة فعل لرفض الطرف الآخر الاقتناع بما أدعوه إليه فإن هذا يتعارض مع العدالة الربانية والبشرية. ويكفي أن يضع الإنسان نفسه في مكان المدعو ليدرك خطأ هذا الفهم وخطره.

ويتعارض هذا الفهم مع العقل والفطرة، فعندما قال أحد قادة رجال الدين من غير المسلمين بأن الإسلام انتشر بالسيف، أي بمبادرة الكافرين بالقتال لكفرهم احتج علماء المسلمين ومسئوليهم وعامتهم على هذه التهمة بطريقة تلقائية. وإذا سألنا واضع الاختبار: هل تجيز للمراقب على الاختبار أن يرغم الطلاب على الإجابات الصحيحة؟ ستكون الإجابة الحتمية المنطقية: **لا**.

وفوق كل ذلك، فإن هذا الفهم للجهاد يتعارض مع النصوص القرآنية العديدة، الصريحة وقطعية الدلالة، مثل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾، ولا محاسبة إلا بعد الممات وانتهاء فترة الاختبار.[١] ويتعارض مع جميع الآيات العديدة الصريحة التي تؤكد أن مهمة الرسول تنحصر في البلاغ، مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾.[٢] بل إن رب العالمين يعاتب نبيه على جزعه على عدم استجابة الكافرين لدعوته، فيقول تعالى، مخاطبا نبيه الكريم: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾.[٣] وما جاء في هذه الآيات القرآنية لا تقبل

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦، ١٦١.

(٢) سورة الشورى: ٤٨.

(٣) سورة يونس: ٩٩.

النسخ لأنها حقائق مطلقة نتلقاها من الله علام الغيوب.

ويتعارض هذا الفهم مع نصوص السنة الكثيرة، ومنها ما رواه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قُدِم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسبى، فإذا امرأة من السبى تبتغى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار**». قلنا: لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها.**»(١)

ويتعارض مع حرص النبي عليه الصلاة والسلام حتى على إسلام الأجيال البشرية التي لم تولد بعد. فعندما قال له مَلَكُ الْجِبَال: «**يا محمد... إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ (الجبلين)**، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئا**».(٢)

فإذا كانت هذه هي رحمة الله بعباده وحرص نبيه على إسلام حتى الأجيال التي لم تولد بعد، هل يمكن أن يأمر الإسلام بقتال من لا يقبل الإسلام، ليعجل في موته، فيحرمه من فرصة الإسلام المتأخر؟ وبما أنه من المعلوم أن القوي هو الذي يقدر على فرض معتقداته وفلسفته على الآخرين، هل يمكن للحكيم العليم، أن يشرع قانونا دوليا يوفِّر المبررات الشرعية لتسلط الأقوياء على الضعفاء المسالمين لإرغامهم على معتقداتهم وفلسفاتهم؟

(١) البخاري: الأدب، من ترك صبية؛ مسلم: سقوط الذنوب، سعة رحمة الله.

(٢) البخاري: بدء الخلق، إذا قال.

هل يعني «الولاء» المحبة والنصرة بالضرورة؟

يلاحظ أن المدلول الأساس لكلمة «الولاء» ولمشتقاتها هو وجود نوع من السلطة والوصاية لطرف على طرف آخر. ويمكن أن نطلق كلمة «مولى» و»ولي» على الطرفين، أي الوصي والموصى عليه.(١) ويلاحظ أنه لا فرق بين الوِلاية بالكسر والوَلاية بالفتح في المعنى الأساس.(٢)

وتنقسم حالات الولاء أو الولاية إلى أقسام، ومن أبرزها ما يلي:

١. الولاية التي لله على جميع مخلوقاته لأنه مدبر الكون، وهو القاهر فوق عباده جميعا، ولا ينفع أحد أحدا أو يضره إلا بإذنه تعالى. فهي السيادة المطلقة، وقد تصحبها العناية، إذا دل السياق على ذلك.(٣)

٢. الولاية التي تنشأ برغبة وطواعية بين المخلوقات؛ وقد تكون متبادلة، أي أن كلا الطرفين وصي على الآخر.(٤) وقد تكون من طرف واحد.(٥)

٣. الولاية التي تنشا بين المخلوقات بسبب ظروف خارجة عن الإرادة المباشرة للطرفين. وقد تكون بين البشر لفضل وراثي، مثل الولاية بين الأب وابنه أو تكون لفضل مكتسب، مثل الولاية بين الزوج المسلم وزوجته غير المسلمة، رغم الاختلاف في الدين.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ولي؛ وانظر أنيس وزملاؤه، الموالاة، والموالي.

(٢) وانظر مثلا ابن منظور.

(٣) سورة الرعد: ١٦؛ وانظر مثلا: سورة هود: ٢٠، ١١٣؛ محمد: ١١؛ وانظر سورة الأنعام: ١٢٧، يونس: ٦٢.

(٤) سورة التوبة: ٧١؛ سورة الجاثية: ١٩.

(٥) سورة الأعراف: ٣٠؛ وانظر السور: آل عمران: ١٧٥؛ النساء: ٧٦؛ الحج: ٣-٤؛ النحل: ١٠٠.

وأما القول بأن الولاء يقتضي النصرة والمحبة فهو قول يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.[1] فالآية تدل على إمكانية وجود حالة بين المؤمنين حيث لا شيء من الولاية للأغلبية المسلمة المستقلة على الأقلية التي لم تهاجر إلى حيث الأغلبية. ومع هذا فإنه يجب على الأغلبية نصر هذه الأقلية في الدين في حالة الاستنصار في الدين بشروطها. ولو قلنا بأن **المحبة جزء أساس من الولاية** لما استقام المعنى، وذلك لأن المحبة بين المؤمنين واجبة في جميع الأحوال. فعدم الهجرة مبرر لأن لا تكون للأغلبية شيئا من الولاية (الوصاية) ولكن ليس مبررا لإسقاط واجب النصرة والمحبة بين المؤمنين بشروطها. ويؤيد هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إنما الولاء لمن أعتق**».[2] فالولاء هنا لضمان حق طرف على الطرف الآخر، ولا يستوجب المحبة والنصرة بينهما. كما يتضح من الآيات المتعددة أن الشفاعة، والوقاية، والإرشاد، والعِشرة، ليست من المدلولات الأساسية للولاية، ولكن قد تضاف إليها. والمتأمل في الأحاديث النبوية ينتهي إلى النتيجة نفسها.[3]

---

(١) سورة الأنفال: ٧٢، وانظر السور: الحج: ٧٨؛ وانظر البقرة: ١٠٧؛.

(٢) البخاري: العتق، من ملك من العرب.

(٣) انظر مثلا كلمة «ولي» في ونسك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٧: ٣٢٢-٣٢٥.

ويضاف إلى ذلك أن الآيات الكثيرة بسياقاتها تؤكد بأن الولاية المحرمة تقتصر على اتخاذ المسلمين أولياء من المعادين للإسلام أو للمسلمين من أجل دينهم. كما أن انعدام الولاء لا يعني ضرورة البغض أو انعدام درجات المحبة كلها، والتعاون. فقد شجّع الإسلام على تأليف قلوب غير المسلمين، والتعاون معهم لتحقيق المصالح الدنيوية المشتركة. وأباح الإسلام الاستعانة بهم وبعلومهم وبخبراتهم... ما لم يؤثر ذلك سلبا على مصير المسلم في الآخرة.(١)

هل يعني «البراء» العداوة والبغضاء بالضرورة؟

يتمثل المدلول الأساس لكلمة «البراء» ومشتقاتها في «الانفصال عن الشيء»، سواء أكانت تهمة أو عيبا، أودَينا، أو عن الأصل المختلف كما في أبدع، أو نفي العلاقة بين المخلوقات ذوات الحياة (مثل الإنسان) وبين شيء معنوي محدد (مثل الكفر)، أو نفي العلاقة بين مجموعتين من المخلوقات.(٢)

ويلاحظ أن كلمة «البراء» لا تتضمن -بالضرورة- العداوة والبغضاء لمن يقوم بشيء يستوجب البراءة. فالأصل فيها هو نفي الصلة أو قطعها مع الشيء المتبرئ منه. ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

١. جاءت الآية التالية للإخبار فقط عن البراءة مما يعمله كل فريق في

---

(١) ابن تيمية، فتاوى ج٤: ١١٤-١١٦؛ ابن القيم، أحكام ص ٢٧٧-٤٠٠؛ أيوب ص ٩٠-٩٢؛ صيني، حقيقة العلاقة ين المسلمين وغير المسلمين؛ صيني، العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

(٢) ابن منظور، برأ؛ سورة الحديد: ٢٢؛ وانظر: البقرة: ٥٤، ١٦٦- ١٦٧؛ الحشر: ٢٤؛ المائدة: ١١٠؛ الأنفال: ٤٨؛ النساء ١١٢؛ الأنعام: ١٩.

قوله تعالى﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.[1]

٢. تفريق رب العالمين بين البراءة من المعتقد، والبراءة من صاحب المعتقد، فقد أضيفت الأخيرة إلى الأولى، في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ...... ﴾[2] لقد أضيفت البراءة مما يعبدون إلى البراءة من عابديها باعتبارهما أشياء مستقلة، فالبراءة من الفعل لا تقتضي البراءة ممن يقوم به دائما.

٣. إضافة العداوة والبغضاء في جملة مستقلة إلى التبري، وإضافة البغضاء إلى العداوة، وذلك باعتبارها أشياء مستقلة، أي وجود احدها لا يلزم وجود الأخريات، وذلك في تكملة الآية السابقة: ﴿.....كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾. فالبغضاء قد تبقى مخفية دون ترجمة حسية. وقد تترجم في هيئة عبارات أو سلوك سلبي فتظهر للآخرين لتسمى العداوة. وقد يحدث السلوك العدائي، بدون بغض، من باب المزاح أو لغرض التربية أو بغير قصد.

ويلاحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام يعلن عن العداوة والبغضاء المتبادلة بينه وبين قومه، والذي بدأها قومه، حيث لم يقتصروا على رفض دعوته، بل قاموا بمعاداته وبغضه. ولهذا، ربط زوالها بالإيمان،

---

(١) سورة يونس: ٤١. وانظر سورة الحاشية ٢٩.

(٢) سورة الممتحنة: ٤.

ولكــن الآية الســابعة تركت الأســباب مفتوحة. يقــول تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.[1] فقــد تزول هذه الحالة بأن يكف قومه عن بغضه وعداوته.

فالإســلام يــرى أن أصل العلاقــة بيــن المختلفين في الديــن أو الحق أن يشــفق بعضهمــا علــى بعــض، وأن يبــذل كل منهما جهــدا مخلصا في إقنــاع الآخر بما يعتقد أنــه الحق. ويجعل الحد الأدنــى للعلاقة المقبولة أن يحافظا على العلاقة الســلمية، ولكل فريق دينــه. فرب العالمين، مثلا يعاتــب نبيه علــى جزعه لامتناع عمه عن الإســلام، فيقــول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾.[2] وقد يكــون الشــعور بين المختلفيــن في الدين هو المحبة الفطرية، بســبب غير اختيــاري مثل القرابة (الوالدين) أو الرحــم (الزوجة من أهل الكتاب) أو إحســان أحد الطرفين إلى الآخر (أبي طالب، والمطعم ابن عدي بالنسبة للنبي صلى الله عليه وســلم). وقد يكون الشعور المودة المتبادلة، وإن لم يقتنع الطرف الآخر بالإسلام، لسوء الفهم أو لتقصير المسلم في الدعوة.

وبهــذا يتضح مما ســبق أن انعدام الــولاء لا يعني بالضــرورة البراء أو العــداوة والبغضــاء. فالأمر ليــس إمــا ولاء أو براء، ولكــن هناك حالات متفاوتة بينهما؛ قد يكون الإشفاق أو الحياد، في حالة غياب الولاء أو البراء.

وهذه الحقائق تتســق مع قــول الله تعالــى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ

---

(١) سورة الممتحنة: ٤، ٧.

(٢) سورة القصص: ٥٦.

يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾.[١] أما القائل بإمكانية الجمع بين العداوة والإحسان في المعاملة يحاول الجمع بين نقيضين: السلوك العدائي والإحسان في آن واحد. وهو من المستحيلات. وأما القائل بأن الإسلام يثيب المسلم على الجمع بين البغضاء في القلب والإحسان الظاهر في السلوك فيتهم رب العالمين بالتشجيع على النفاق. والنفاق صفة ترفضها الفطرة السليمة والعقل السليم؛ والإسلام دين الفطرة، ولا يتعارض مع العقل السليم.[٢]



(١) سورة الممتحنة : ٨.

(٢) انظر مثلا: ابن منظور، لسان العرب؛ أنيس وآخرون مادة عدا؛ سورة الممتحنة: ٢.

الفصل الثالث

الحرص على نشر الخير

هنـاك جماعات عقدية وفكرية أو مذهبية، تـرى أن منهجها هو الذي يحقق السـعادة في الدنيا والآخرة، ولكنها لا تهتم كثيرا بإشـراك الآخرين فيمـا تراه خيـرا، فهي لا تدعوا إلـى منهجها. وهناك جماعـات تؤمن بأن منهجها سينقذ البشـرية في الدنيا، ويحقق السلام العالمي. وترى ضرورة نشـره **وفرضه على** الآخرين. وهناك جماعات تعتقـد بأن ما هي عليه هو الذي يحقق السعادة الشاملة في الحياة المؤقتة والأبدية؛ وتنشط في الدعوة إلى منهجها وفكرها، **ولكن بدون إكراه**. والمسلمون من هذه الفئة.

لماذا يحرص المسلمون على نشر الإسلام؟

يحرص المسلمون على نشر الإسلام لأن الله سبحانه وتعالى يأمرهم بأن يدعو الآخرين إلى الإسلام، دون إكراه. بل يأمرهم بأن تكون الدعوة بالإقناع في قولـه تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾.[١] ولهـذا فـإن المسـلمين يهمهم تحقيق السـلام والفلاح للبشرية، بل ولجميع المخلوقات المكلفة في الدنيا والآخرة. وليس هناك برهـان أكـبر من هذا على حب الإسـلام الخير لجميع الناس. فالإسـلام يحث المسلمين على حب السـلام والخير الشامل للمخلوقات المكلفة جميعهـا: الإنس والجن. ويحرِّم عليهم احتـكار الهداية الربانية التي فيها

(١) سورة النحل: ١٢٥.

نجاة الجن والإنس في الدنيا وفي الحياة الآخرة الأبدية بصفة خاصة، ويجعل نشرها واجبا عليهم لكي لا يُحرم منها أحد.

وفي الوقت نفسه، يرى الإسلام أن جميع من يبلغ سن الرشد والنضج من الإناث والذكور أحرار في الدنيا، فيما يختارون ويعتقدون، مع تحمل نتيجة اختيارهم في الآخرة. فالله سبحانه وتعالى يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...﴾(١) ويقول تعالى﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾.(٢)

أما إذا اختار الإنسان الإسلام طواعية فعليه أن يؤدي الالتزامات التي يفرضها الإسلام ليتجنب العقوبة المترتبة على عدم وفائه بالعهد، وليصبح مؤهلا للحصول على المكافآت والامتيازات التي يستحقها وأكثر.

فعلى من يختار الإسلام دينا الإيمان بجميع تعاليمه، إذ لا يستطيع الأخذ ببعضها ورفض بعضها الآخر، ما دامت هذه التعاليم قطعية الثبوت والدلالة أو قريبا من ذلك. يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾(٣)

ويشبه هذا من يقبل أن يكون مواطنا في دولة معينة باختياره، حيث يصبح ملزما بالوفاء بجميع شروط هذه المواطنة. ومن شروطها أداء ما

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة غافر: ١٧.

(٣) سورة البقرة: ٨٥.

عليـه من واجبات للحصـول على ما له من حقوق وامتيـازات. وليس له الانتقاء من هذه الواجبـات. والفرق الوحيد بينهما أن المواطن قد تطرده الدولـة التـي ينتمي إليهـا. أما المسـلم فلن يسـتطيع أحـد أن يحرمه من الإسلام بدون إرادته الخاصة.

ومن الواجبات ذات العلاقة أن على المواطن المسلم دفع زكاة من ماله لصالـح المجتمع الذي ينتمي إليه وينعم بخدماته، وأن على المواطن غير المسـلم دفع مثل ذلك للدولة الإسلامية. وهي بالنسبة للأخير تندرج فيما نسـميه اليوم بالضريبة. وبالنسبة للمواطن المسلم في الدولة غير الإسلامية فـإن عليه دفـع الضريبة المفروضة، مثـل ضريبة العقار والشـراء والدخل، وذلك إضافة إلى الزكاة، بعد حسم جميع المصاريف، ومنها الضرائب.

ما موقف الإسلام من أنشطة الأديان الأخرى؟

تمنع بعض الدول التي يمثل المسـلمون فيها أغلبية السكان الأنشطة التي تدعوا إلى الأديان أو المذاهب الفكرية الأخرى لسببين رئيسين:

أولاً: لأن جميع السـكان أو غالبيتهم اختاروا الإسـلام دينا يتم التعبد به، وشـريعة تضبـط علاقتهم فيما بينهـم وفيما بينهم وبيـن غيرهم. ومن أساسيات الإسلام الإيمان بالتالي:

١. وجـود خالـق للكون، وهـو «الله» سـبحانه وتعالى، وهـو الأول وهو الآخر.[١]

(١) سـورة النسـاء: ٤٨، ١١٦؛ ولفـظ الجلالة "الله" يطلق علـى الإله ولا يقبل التثنيـة ولا الجمع؛ سورة الحديد: ٣ وهو الأول خالق كل شيء، والآخر الذي لا يدوم إلا هو.



٢. الخالق واحد ولا يستحق العبادة أحد سواه.

٣. الخالق لا يحتاج إلى وسيط يخبره بحاجة مخلوقه.

٤. ميز الله الجن والإنس بصفات هي: العقل، وحرية الاختيار النسبية، وزودهم بالهداية المتمثلة في الفطرة السليمة وفيما جاءت به الرسل. وهم محاسبون على أعمالهم في الحياة المؤقتة ليجنوا ثمارها في الحياة الآخرة، حيث الجنة أو النار.

٥. لا بد للمخلوق المكلف (الجن والإنس) أن يطيع أوامر الله التي أنزلها على آخر رسله، محمد صلى الله عليه وسلم، في حدود الاستطاعة.

وبهذا يتضح أن الأديان الحالية والمذاهب الفكرية تتعارض مع الإسلام في واحدة أو أكثر من هذه الأساسيات. وبث الأفكار المعارضة يهدد أمن أغلبية المواطنين ليس في الحياة المؤقتة فحسب، ولكن في الحياة الأبدية أيضا.

ثانيًا: لأن سكان أي بلد في الغالب ليسوا جميعا راشدين. فهناك الكثير من المواطنين الذين لم يبلغوا سن الرشد. وهؤلاء في حاجة إلى الحماية من الأفكار والمعتقدات التي تهدم المعتقدات التي تتمسك بها أغلبية المواطنين في البلاد أو جميعهم. بيد أن من يعش خارج هذه البلاد من مواطنيها موفدا من الحكومات أو لمصلحة شخصية فتحكمه أنظمة البلاد التي يقيم فيها. ومن يريد الاطلاع من الراشدين على المعتقدات غير الإسلامية للبحث العلمي داخل البلاد الإسلامية فإن الدولة –في الغالب– تُيسر له ذلك.

وهـذا أمر طبيعـي فقد أقرت المواثيـق الدولية للحقـوق الثقافية حق الأب والوصي الشرعي في اختيار نوع التربية لأولاده.[١]

ومن الطبيعي أن تمنع بعض الدول داخل حدودها السياسـية أنشـطة تعتبرهـا خطيرة مـن وجهة نظرها الخاصة، وتؤثر علـى أمنها الداخلي أو سلامة مواطنيها، وإن كانت هذه أعمالا لا تؤثر إلا في حدود الحياة الدنيوية المؤقتة. وهذا مـا تفعله جميع الدول، حتى الديمقراطية والعلمانية منها. فكيف إذا كانت هذه الأنشـطة خطيرة لا يقتصر أثرها على الحياة الدنيوية المؤقتة ولكن يمتد أثرها على الحياة الأخروية الأبدية أيضا؟

ومـا دامت هذه القرارات لا تلحـق أضرارا حتمية بالآخرين، فإن هذا يتسـق مع مبادئ الأمم المتحدة التي تؤكد على استقلال الدول الأعضاء وحمايته.

وعلـى الرغـم مـن منع الجهـود التي تنشـر الأديـان أو الأفـكار غير الإسـلامية، فإن جميع الدول ذات الأغلبية الإسـلامية تسمح لمواطنيها، الأصليين مـن غيـر المسـلمين، بممارسـة عباداتهـم الخاصـة، وتطبيق تشريعاتهم الخاصة بالنسـبة للأحوال المدنية في الحدود التي لا تتعارض مع تشريعات الأغلبية.

بيـد أن للبقعة التي تحتلها المملكة العربية السـعودية حرمة خاصة في الإسلام.

---

(١) الميثاق الدولي لحقوق الإنسان، المادة ٢٦ : ٣؛ الاتفاقيات الدولية الخاصة بالحقو الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ١٣ : ٣.

ما الموقف من الممارسة العلنية للأديان الأخرى في المملكة؟

للحديث عن هذا الموضوع لابد من الاتفاق على بعض الأسس، ومنها:

١ - هل الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة والمشاركة في الهيئات المنبثقة عنها يعني التنازل عن المعتقدات والقيم التي يعتز بها الشعب أو أغلبيته في البلد المستقل، ما دامت لا تطبقها إلا داخل بلادها؟

الإجابة غالبا بهذه الشروط هي: لا. وهذا ما تطبقه جميع الدول، ومنها العلمانية. فميثاق الأمم المتحدة يقول إن من أهدافها:

إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب وبأن يكون لكل منها حق تقرير مصيرها...[١]

ليس في هذا الميثاق ما يسوغ «للأمم المتحدة» أن تتدخل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما، وليس فيه ما يقتضي الأعضاء أن يعرضوا مثل هذه المسائل لأن تحل بحكم هذا الميثاق، على أن هذا المبدأ لا يخل بتطبيق تدابير القمع الواردة في الفصل السابع.[٢]

٢ - هل للأقلية من المواطنين حق فرض معتقداتها أو أفكارها أو آرائها أو تقاليدها على الأغلبية في ظل النظم العلمانية الديمقراطية أو الشعبية؟

الإجابة غالبا هي: لا.

---

(١) ميثاق الأمم المتحدة: الفصل الأول، المادة الأولى، الفقرة ٢.

(٢) ميثاق الأمم المتحدة: الفصل الأول، المادة الثانية، الفقرة ٧؛ ويتعلق بتدابير قمع الدول التي تعتدي على دولة أخرى.

٣ - هل للأجانب حق التصويت بحسب النظم الديمقراطية العامة أو الشعبية أو أنهم مواطنون لدول أخرى لهم حق التصويت فيها. وهم في البلاد التي يقيمون فيها للعمل أو الدراسة أو اللجوء السياسي... إنما هم متعاقدون مع الدولة التي منحتهم تأشيرة الدخول. وليس لأحد أن يشترط شيئا بعد توقيع العقد إلى أن ينتهي العقد أو أن يفسخا العقد بالاتفاق بينهما؟

الإجابة في الغالب هي: استحق الأجنبي الإقامة في البلاد التي يقيم فيها بموجب عقد دخل فيه طوعا ودخلت فيه الدولة التي يقيم فيها طوعا. وهما قبل توقيع العقد يملكان حرية قبول الشروط الضمنية والصريحة أو رفضها. وجميع القوانين المحلية هي من الشروط الضمنية وينبغي تطبيقها، إلا إذا ورد في العقد ما يستثني منه.

وبعبارة أخرى، فإن الأجنبي سواء أكانت معتقداته أو قيمه تتفق مع قيم البلاد التي يقيم فيها أم لا، فإن عليه أن يخضع بعد توقيع العقد - وحتى تنتهي مدته- للقيم والتشريعات المطبقة في البلاد. وهذا أمر طبيعي تعمل به جميع الدول بما فيها العلمانية ومنها الديمقراطية. والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها:

١ - إذا ولِد الأجنبي في الولايات المتحدة الأمريكية فلا يحق له دخولها إلا بجواز سفر أمريكي، وذلك على الرغم من أن حمل هذا الجواز قد يجعل الإنسان عرضة للعقوبة حسب قوانين بلاده. بيد أن الأجنبي له الحرية الكاملة في أن لا يدخل الولايات المتحدة ابتداء، فلا

يضطر إلى حمل جواز سفر أمريكي.

٢- وهناك فئات متعددة من التأشيرات تعترف بها جميع الدول ومنها الدول الديمقراطية. فمن يدخل البلاد بنوع من التأشيرات ينبغي عليه الالتزام بقيودها، مثلا: يدرس فقط ولا يعمل، لا يشترك في الأنشطة السياسية... والأجنبي – قبل موافقته على هذه الشروط- يقدِّر مصلحته الشخصية بحرية تامة ثم يقرر الحصول على التأشيرة بهذه القيود أو يمتنع، ولن تجبره الدولة الأجنبية على الحصول عليها.

٣- يعيش بعض المسلمين في بلاد غير إسلامية، بصفتهم مواطنين فيها، ولا يستطيعون ممارسة بعض التشريعات الأساسية في دينهم، مثل تطبيق عقوبة القصاص على القاتل المتعمد، وعقوبة جلد الزاني والزانية... وذلك لأنها مخالفة للتشريعات التي ارتضتها الأغلبية في تلك البلاد. وعلى الرغم من أن هذه التشريعات أساسية فإن الإسلام دين عملي ومتسامح، ولهذا يعفي هؤلاء المسلمين من هذا الالتزام، ويحثهم على أن يكونوا مواطنين صالحين في بلادهم، بل وأن يكونوا قدوة طيبة.[(١)]

وإذا كان هذا هو حال المواطن الذي ينتمي إلى الأقلية في بلده، فمن باب أولى أن يخضع الأجنبي لقوانين البلاد التي يقيم فيها أو أن يترك الإقامة فيها متى ما سمح له العقد الذي وقّعه. وهو قبل كل شيء حر يستطيع أن يرفض الدخول إلى المملكة ابتداء، ولن تجبره حكومة المملكة على دخولها أو الإقامة فيها.

---

(١) رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة.

وأما بالنسبة للهيئات الدبلوماسية فهم متغيرون من وقت لآخر، وتختلف دياناتهم ودرجات التزامهم بدياناتهم، وليس من المنطق إقامة منشئات ثابتة لممارسة عباداتهم، فيسمح لهم بإقامة شعائرهم في أماكنهم المحمية بموجب العرف الدبلوماسي. والعرف الدبلوماسي يقتضي الاحترام المتبادل بين الدولتين ومنها احترام الأنظمة المحلية.

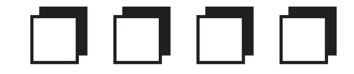
لقد ارتضى الشعب في المملكة العربية السعودية الإسلام دينا: معتقدات وعبادات وتشريعات ومبادئ أخلاقية، واختار ذلك لنفسه. وجعل الإسلام للمنطقة الجغرافية التي تقع عليها المملكة خصوصية، إذ يأمر بأن لا يجتمع دينان في جزيرة العرب التي تضم أقدس بقعتين عند المسلمين في العالم،[1] أي أن لا يُتعبّد فيها بدينين بصورة رسمية وعلنية. ومن مسؤوليات حكومة المملكة التي تمثل شعبها المسلم الاجتهاد في تطبيقه، وليس لها خيار في ذلك.

ويندرج تحت هذا أيضا منع دخول غير المسلمين مكة المكرمة، التي يستقبلها المسلمون عند صلاتهم. وهو إجراء عادي فلوحات «ممنوع الدخول لغير المختصين» منتشرة في المؤسسات الحكومية والخاصة، في الدول الديمقراطية وغيرها. وهذا المنع قد يكون مبنيا على أسباب منها الأمن ومنها تفادي الإزعاج ومنها التقديس كما هو الحال بالنسبة للإسلام الذي يمنع من يرفض الإسلام دينا من دخول مكة المكرمة. وعلى غير المختصين أن يحترموا إرادة أصحاب المكان.

---

(١) موطأ الإمام مالك: كتاب الجامع.

وحتى المطالبة بالمعاملة بالمثل في هذه المسألة تعتبر مخالفة للحرية الشخصية. فأنت لا تستطيع أن تطالب شخصا بإدخالك منزله لأنك قررت باختيارك السماح له بدخول منزلك. وما لم تشترط عليه ذلك قبل إدخاله منزلك، فإن كل إنسان حر فيما يقرره في هذه المسألة بحسب ظروفه أو راحته الشخصية.



الفصل الرابع

حقوق الإنسان في الإسلام

لقد ميّز الله الإنسان بميزات عديدة، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.[١] وجعل الله الإنسان خليفة في الأرض[٢] ومنحه الحرية للاستمتاع بخيراتها واستثمارها لصالح حياته الدنيوية والأبدية مع تحميله مسؤولية تعميرها وإقامة العدل فيها.

وجعل الله الناس جميعا من أصل واحد، أي التراب[٣] ثم جعلهم يتكاثرون من أب واحد وأم واحدة.[٤] ولهذا يؤكد الرسول صلى عليه وسلم بأنه «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى».[٥] وهذا يختلف عن المساواة المطلقة التي تنادي بها الشعارات البشرية المبالغ فيها.

ومن تكريم الله الإنسان أن خلقه في أحسن صورة.[٦] وأوجب على والديه منحه اسما طيبا، وجعل من السنة الاحتفال بقدومه وتقديم قربان إلى الله من أجله، وأوجب حسن تربيته ليكون من المفلحين في الدنيا وفي الآخرة. كما جعل له حقوقا كثيرة على مجتمعه.[٧]

---

(١) سورة الإسراء: ٧٠.
(٢) سورة البقرة: ٣٠؛ سورة الأحزاب: ٧٢.
(٣) سورة آل عمران: ٥٩.
(٤) سورة النساء: ١.
(٥) مسند احمد: باقي سند الأنصار.
(٦) سورة التين: ٤.
(٧) المحيسن الناصر ودرويش ص ٩٩-٣٩٩؛ صيني، الإسلام والتنشئة السياسية.

ما مفهوم العدالة والمساواة في الإسلام؟

يميز الإسلام بين العدالة والمساواة، وذلك لأن العدالة مطلقة. أما المساواة فتكون مطلقة ونسبية، ولا تكون مساوية للعدالة إلا إذا كانت نسبية.

لقد خلق الله الناس وميّز بعضهم على بعض في المنح الفطرية (مثل الذكاء) ومنحهم الفرص المتميزة للحصول على المنح المكتسبة (مثل الثروة القابلة للوراثة والأخلاق والعلم غير القابل للتوريث) ليكمل بعضهم بعضا. وهذا لا يعني انتفاء العدالة. فالمساواة المطلقة شيء مختلف تماما عن العدالة، بل إن بعض أنواع المساواة منافية للعدالة. ومثال ذلك المساواة بين الكسول والمجد، وبين الذكي والغبي، والمعلم والطالب، والأب والابن، وأفراد الأسرة الواحدة وغيرهم، والمواطنين وغير المواطنين. ولهذا كانت الاختبارات ومسابقات التمييز المشروعة المبنية على الاختلاف والتنوع الإيجابي. ولهذا كانت الطاعة من البعض للبعض الآخر ضرورية حتى تستقيم أمور المجتمعات والدول والكون، لا فرق بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية.

ومع أن باب الارتقاء في مجال المفاضلة المبنية على الصفات المكتسبة مفتوح وفي الموروثة مغلق نسبيا، فإن الزيادة في كليهما يقابلها زيادة في المسؤولية. فمثلا، كلما كان ذكاء الإنسان أكثر كانت مسؤوليته تجاه نفسه وتجاه المجتمع أكبر. وكلما كان ماله أكثر كانت مسؤوليته أكبر.

وأما المساواة النسبية فهي التي يمكن أن تكون مساوية للعدالة. فالعدالة هي منح كل ذي حق حقه الذي يستحقه أو يتناسب مع طبيعته، وليس مساواة الإنسان بمن يختلف عنه في الصفات الفطرية (الأنوثة والذكورة، والسبق الزمني بين الأب والابن) أو المكتسبة (الاجتهاد والكسل).

ولهذا كانت المساواة العادلة في المحاسبة مبنية على مقدار الجهد المبذول مقارنة بالإمكانات المتوفرة، وليس على الحجم النهائي للكسب. وبعبارة أخرى، هي محاسبة مبنية على نسبة حجم الإنجاز إلى حجم المنح الموروثة.[1]

كما تقتضي العدالة في الإسلام أن تكون هناك مكافأة وافية وعقوبة مجزية وتصفية عادلة للحقوق بين المخلوقات. لهذا لا يعتبر الإسلام الحياة الدنيا قصة كاملة، وإنما يعتبر الحياة الأبدية في الآخرة جزءا متمما لا غنى عنه. ففي الدنيا قد يغرق المحظوظ بمساعدة الآخرين في نعيم الدنيا دون بذل جهد يُذكر؛ وقد يموت المجتهد قبل الحصول على المكافأة المستحقة لقاء جده واجتهاده. وفي الدنيا قد ينعم الظالم بظلمه و ينجو من العقوبة اللازمة؛ وقد يموت المظلوم كمدا دون الأخذ بحقه.

ومن هنا جاءت الحاجة إلى المحاسبة العادلة الشاملة في الحياة الأبدية، حيث يلقى المقصر ما يستحقه إلا أن يعفو الله عنه، ويجد المجتهد مكافآته مضاعفة بدون حدود. وفي الآخرة تتم التصفية العادلة

---

(١) إسماعيل، كشف الغيوم ص ٦٣-٧١.



النهائية الشاملة للحقوق بين المخلوقات.

ما مفهوم الحرية في الإسلام؟

الحرية في الإسلام لا تعني بتاتا الحرية المطلقة أو شبه المطلقة التي تنادي بها الشعارات اللادينية. فالإسلام دين واقعي شمولي النظرة. لهذا فإن الحرية في الإسلام قضية نسبية، وذلك لأن الإنسان مقيد بشبكة عظيمة محكمة من الأنظمة التلقائية (الأتوماتيكية) التي تسيِّر هذا الكون بمشيئة الله. فالله سبحانه وتعالى أوجد الكون ويخلق ما فيه ويسيره بأمره: كن، فيكون (الأمر المباشر) وبالسنن الكونية أو النظم التلقائية التي خلقها. ولا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذنه وبمشيئته، فهو القاهر فوق مخلوقاته.

بيد أن هذا لا يعني أن الله حكم على الناس أن يختاروا الحياة التي يعيشونها في هذه الدنيا، كما يحب البعض أن يفهم عقيدة القدر في الإسلام. فالقدر ليس إلا تسجيلا مسبقا لأفعال العباد، يستند إلى العلم المطلق للخالق. وهو علم لا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة. فهو علم يحيط بكل شيء موجود في كل زمان أو مكان إحاطة تامة.[1]

وحرية الإنسان أيضا مقيدة بالمسؤولية تجاه خالقه الذي جعله خليفة في الأرض وسخر له المخلوقات، التي لا تُعد ولا تحصى لينعم بها في هذه الحياة المؤقتة، وليسخرها للحصول على النعيم المقيم في الحياة الآخرة. وترتكز هذه المسئولية بشكل أساس على نعمة العقل، والهداية

---

(١) إسماعيل، كشف الغيوم ص ٥- ٥٦،

(التعاليم الربانية)، وحرية الاختيار بين الأسباب ذات النتائج الحتمية أو ما نسميه بالسنن الكونية. كما أنه مقيد بمسؤوليته تجاه نفسه والمخلوقات الأخرى.

ويلاحظ أن الإنسان لا يمكنه الخلاص من قيد السنن الكونية في الأحوال العادية، ولكن يستطيع أن يتجاهل التعاليم الربانية، وإن كان ذلك سيكون على حساب مصيره في الحياة الأبدية بصورة مؤكدة. فالحرية لا تأتي بالمجان ولا يمكن المحافظة عليها بالمجان.

ويضاف إلى ذلك أن حرية الإنسان مقيدة بتقاليد المجموعات التي ينتمي إليها، سواء أكانت الأسرة أم المؤسسة التي يعمل فيها. وما ينطبق على الفرد ينطبق على الأقلية فهي مقيدة بما تقرره الأغلبية في الشؤون العامة. وما ينطبق على الجماعات في الدولة الواحدة ينطبق على الدولة في المجتمع الدولي.

ومن القيود أن الإنسان إذا التزم طواعية بأمر أو بالانتماء إلى جماعة من الناس، ليحصل بموجبها على ميزات العضوية، أن يفي بالتزامه إلى أن تنتهي المدة المحددة للاتفاقية أو إلى أن يتنازل الطرف الثاني، وإلا استحق العقوبة.

ومع هذه القيود فإن الإنسان لديه مجال واسع للحرية في كثير من الأمور. فبالإضافة إلى الحرية في الاختيار بين الصواب والخطأ بمعيار الدنيا المؤقتة أو بمعيار الحياة الأبدية، فإنه يملك أنواعا من الحريات تندرج كلها تحت حرية التنوع والتعدد المقبول وغير المقبول.

فالتعددية والتنوع من الصفات الفطرية اللازمة لسعادة المجتمع البشري. وبدونها يضعف التنافس الذي يشحذ الهمم لاستغلال الموارد الطبيعية من أجل توفير الرفاهية للإنسان فضلا عن احتياجاته الضرورية. والتنوع ضروري ليتعارف الناس وليتعاونوا. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.[1]

ماذا عن حرية التعبير للمواطن؟

يظن كثير من المسلمين أن الأنظمة الناجحة في بيئاتها ومنها البيئات الغربية، هي وحدها التي تحقق السعادة للإنسان، وذلك لأنها تمنح الفرد حرية التعبير عن آرائه ومشاعره. ولو سألنا هؤلاء المسلمين أتحبون – حقا– أن يكون للمسلمين تلك الحرية المنتشرة في هذه البيئات وإن كانت تؤدي إلى ما أدت إليه وعلى رأسها التضحية بالحياة الآخرة الأبدية؟ ستكون الإجابة طبعا: لا.

أما إذا كان المقصود بحرية التعبير هي حرية الأمر بالمعروف (المضمون والأسلوب) والنهي عن المنكر، فإن المسلمين لا يحتاجون إلى أن يستوردوا حلولا أجنبية عن بيئتهم. وهم الأسبق في هذا المجال، ولاسيما بالنسبة للنصح لأصحاب السلطة.[2] وكل ما يحتاجونه هو القيام بهذا الواجب الديني. فحرية التعبير بهذا المعنى، ليست مجرد حق للمسلم

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) صيني، الأمن الفكر والأنظمة؛ صيني، حرية التعبير.

يمكنه التنازل عنه، بل هو واجب إسـلامي تمليه عليه عقيدته. بيد أن هذا الواجب ينبغي أن يُؤدّي حسب الضوابط التي حددها الإسلام. ومن أبرز هذه الضوابط أن لا يخالف مضمون الكتاب والسنة وفهم جمهور علماء المسـلمين أو منهج الاستنباط عندهم، وأن تُـؤدى بالطريقة التي تحقق الهـدف من هـذه الآلية الضرورية لصـلاح أي مجتمع إنسـاني ولصيانته. ومن أبرز معالم هذه الطريقة أن تكون تنبيها بالمعروف وبالحسـنى، وأن لا يتوانـى القـادرون في المجتمـع عن القيـام بهذا الواجب ولـو تعرضوا لـلأذى. ومن واجب المجتمع أن يشـجع عليه بالتدريـب اللازم وبتوفير البيئة الضرورية لازدهاره. ومن متطلبات هذه البيئة عدم حصره كله في فئة محددة باعتبارها معصومة، وأما غيرهم فهم الذين يحتاجون إلى التوجيه، أو باعتبارها المسؤولة الوحيدة، وأما الآخرون فهم غير مسؤولين.

فبالنسـبة للأسـرة مثـلا، ليس هناك مـا يسـهم في حمايـة أفرادها من الانحراف في الخفاء دون علم الأب، مثل السـماح لهم بتقديم المشـورة لمصلحة الأسـرة كلها أو بطرح آرائهم ومشاعرهم دون خوف من القمع أو العقوبـة. هـذا، مع أن بعض الآراء قد تكـون غير ناضجة وبعض طرق التعبيـر قد تكون غير مؤدبة. فهذا أفضل للأسـرة ولربهـا من أن يعيش في عالم وهمي كل الأمور فيه على ما يرام، وهي في الحقيقة تغلي في الظلام. وهـو أفضل لأن السـلوك المكشـوف يمكن التعرف علـى خلله في وقت مبكر فيُسـارع إلى إصلاحه قبل اسـتفحاله. وأما مـا يجري في الظلام فهو أشبه بالسرطان الذي ينتشـر دون رقابة ولا استعدادات مناسبة لمقاومته.

وبعبارة أخرى، فإنه خير للأسرة أن تتحمل الشر القليل الظاهر والذي قد يتبخر بمجرد التعبير عنه، بدلا من مواجهة الشر الخطير الخفي الذي لا تحمد عقباه. فليس هناك خير مجاني بدون مقابل. وهذا المثال ينطبق على أي مجموعة بشرية، سواء أكانت صغيرة أو كبيرة.

ماذا عن الرق في الإسلام؟

لقد كان الاسترقاق هو المعاملة السائدة للأسرى في الديانات السابقة والعرف الدولي عندما جاء الإسلام.[١] وبقي هذا العرف سائدا قرونا عديدة بعد مجيء الإسلام. فليس من المستغرب إذا أجاز الإسلام استرقاق الأسرى معاملة بالمثل حتى لا يكون موقف المسلمين أمام أعدائهم ضعيفا. ومما يؤكد ذلك أنه كان للرق مصادر كثيرة مشروعة في ذلك العهد ولكن الإسلام لم يجز إلا هذا المصدر الوحيد.[٢] وجعل هذا المصدر جائزا **وليس واجبا** أي أنه **لا يوجب** اتخاذ الأسرى أرقاء، ولكن يجعل من صلاحية إمام المسلمين أو الحكومة الإسلامية الاختيار بين اتخاذهم أرقاء، أو إطلاق سراحهم بمقابل، أو إطلاق سراحهم بدون مقابل.[٣] ومع تغير الأعراف الدولية في التعامل مع الأسرى فقد أمكن للإسلام العودة إلى الأصل الذي يؤكد الأخوة بين الناس.

فالأصل في الإسلام أن العبودية لله وحده، وأن الله هو المالك الوحيد

---

(١) انظر مثلا: الكتاب المقدس: سفر التثنية ٢٠؛ صموئيل الثاني، ١٢: ١٨-١٩؛ سفر الملوك، ١١: ٣؛ أيوب ١٩: ١٤- ١٦، رسالة بطرس الأولى، ٢: ١٨، ٢٠-٢١.

(٢) ابن تيمية، مجموع فتاوى ج٣٢: ٨٩.

(٣) سورة محمد: ٤؛ ابن تيمية، مجموع ج٣١: ٣٨٠، ٣٨٢؛ ابن القيم، زاد ج٥: ٦٥-٦٦

وأن العلاقة بين البشـر هي علاقة أخوة، والمعيار الأساسي في التفريق هو التقوى. والتقوى كسـب شخصي لا يمكن للبشر أو المخلوقات تحديده بصفـة جازمة في الحيـاة الدنيا، ولا يمكن توريثـه أو منحه.[١] ولهذا حث الإسـلام على حسن معاملة الأرقاء ووصفهم بأنهم إخوة لمن يملكونهم. بل، وألحق نسبهم بسادتهم عن طريق الولاء الذي هو في قوة رباط النسب حتى أن بعضهم - في فترة وجيزة- أصبحوا حكاما على سادتهم.[٢]

ولا يعترف الإسـلام بالرق ظاهرة طبيعية ولكن حالة استثنائية، ينبغي التعامل معها بحكمة، توازن بين القاعدة العامة في العلاقة بين بني البشـر، وبيـن الواقع الموجود. ولهذا وضع الإسـلام التشـريعات اللازمة لإزالة الرق بصورة مسـتديمة، إذا انقطع المصدر الوحيد المشـروع. ومن هذه التشريعات جعل العتق الخيار الأول في التكفير عن بعض الذنوب، وحث على مساعدة الرقيق الذي يريد شراء حريته حتى من بيت مال المسلمين، وحث على العتق كواحدة من الأعمال التي لها أجر عظيم، وجعل تحرير الجارية التي تلد لسيدها مولودا لازما بعد وفاة سيدها.[٣]

وممـا هو جدير بالملاحظـة أن العتق في حالة التكفير عن الذنب ليس البديـل الوحيـد، وإنمـا فيه تخييـر بين عتق رقبـة، أو إطعام مسـاكين، أو

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) محمد قطب، شبهات ص ٣٣-٣٥.

(٣) سورة النور: ٣٣؛ البيانوني وخاطر ج٢: ٤٦٨-٤٧٠،ج٤: ٢٩٥-٢٩٦؛ محمد قطب، شبهات ص ٣٦- ٣٨.

صيام...»[١] وذلك لأن الرق ظاهرة ليس لها أن تدوم؛ فقد يأتي يوم لا يجد فيه من تجب عليه الكفارة رقيقا يعتقه.

ما موقف الإسلام من التنظيم السياسي؟

يتكون أي نظام من عنصرين: المضمون أو المبادئ، والشكليات أو الإجراءات. وفي الوقت الذي يضع فيه الإسلام المبادئ العامة اللازمة للتنظيم الاجتماعي (الجمعيات والمؤسسات الخاصة) والسياسي (الأحزاب والمؤسسات العامة) فإنه لم يقيد المسلمين بشكليات أو إجراءات محددة، وترك هذه الأمور للمسلمين في كل زمان ومكان ليختاروا ما يناسب واقعهم وظروفهم.[٢] فقد أجاز الله توارث النبوة والسلطة بين داوود وسليمان، ولم يحرمه. يقول تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[٣] فالمبادئ صالحة لكل زمان ومكان لأنها تخاطب العناصر الفطرية الأساسية للإنسان. والإجراءات الجيدة هي في الغالب ليست إلا نتيجة للتفاعل بين المبادئ الثابتة والظروف المتغيرة المتجددة. وتختلف درجة التفاعل المطلوبة باختلاف مجالات الحياة. وهي في مجال التنظيم السياسي أعظم من غيرها.

فالإسلام يشجع على التنظيم وعلى تعيين رئيس للجماعة وإن كان عدد أفرادها لا يزيد عن الاثنين. وهذا ظاهر في الحث على أداء الصلاة

---

(١) مثلا: سورة المائدة: ٨٩؛ سورة المجادلة: ٣-٤.

(٢) أسد ص ٥٣-٥٦؛ العوا ص ٦٦-٦٨.

(٣) سورة النمل: ١٦.

جماعـة، وأن لا يسـافر اثنـان إلا ويؤمـر أحدهما، والانتمـاء إلى جماعة المسـلمين، والحث على وحـدة الكلمة، إذ يقـول تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾.[١] ويحث الإسـلام على التعاون في سـبل الخيـر بين النـاس عامة، حيث يقول تعالـى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.[٢] كمـا يحـث علـى التعـاون لتحقيـق المصالح المشـتركة بين المختلفين حتى في الديـن. وأبرز مثال على ذلك الموادعة التي تم عقدها في عهد الرسـول صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود والمشـركين.[٣] ويؤكد الإسـلام على حسن التعامل بيـن الناس، وإن اختلفوا في الدين، فمثلا يقول تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.[٤]

ومـن حيـث المبـادئ، فهناك أوجه شـبه كثيـرة بين النظام السياسـي الإسلامي وغيره. بيد أن هناك أيضا بعض الاختلافات الجذرية بينه وبين النظام الديني المسيحي من جهة، وبينه وبين النظام اللاديني الديمقراطي من جهة أخرى. وعلى رأس هذه الفروق ما يلي:

١. النظـام الديني الذي ينتسـب إلى مسـيحية القرون الوسـطى كان نظاما يغلب عليه أنه بشـري، ولكنه يتخذ صفة القدسية الكاملة. فالحاكم

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة المائدة: ٢.

(٣) ابن هشام ج٢: ١٠٧-١٠٨؛ حميد الله ص ٣٩-٤٧؛ العوا ص ٥٠-٦٤.

(٤) سورة الممتحنة: ٨.

هو المشرع وهو الحكَم النهائي. أما في النظام الإسلامي فالحاكم فيه والمحكوم يخضعان للشريعة الربانية المستقلة بصورة كافية، أي المؤهلة لأن يحتكم إليها الاثنان. ويترك فرصة للتحكيم البشري في التفاصيل، وعند الاختلاف على نسبة بعض النصوص إلى الخالق، أو الاختلاف في فهم النص، أو في تشخيص الواقع، أو في تطبيق الحكم على الحالة المحددة.

٢. النظام اللاديني الديمقراطي أو الشعبي يجعل التشريعات في يد الأغلبية الصادقة أو المصنوعة أو المزيفة، ولم يترك للأديان إلا المعتقدات والعبادات. أما في النظام الإسلامي فالمعتقدات والعبادات والتشريعات كلها تخضع لخالق الكون بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة كما سبق بيانه. فكلها خاضعة للقرآن الكريم والسنة النبوية، ويسهم في وضع تشريعاتها العلماء العالمون بكتاب الله وسنة رسوله، إضافة إلى ذوي الخبرة في كل مجال من مجالات الحياة.

ويضاف إلى ذلك أن النقد البناء المنضبط (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) واجب ديني، لا يمكن التنازل عنه بصورة جماعية، بخلاف الديمقراطية فحرية النقد غير المنضبطة حق للفرد يمكن التنازل عنه.

كما أن الشورى في النظام الإسلامي (المشاركة بالرأي) يركز على الكفاءة، أي رأي ذوي البصيرة في العلم الشرعي أو في مجال الحكم ولا يقتصر عليهما، دون تفريق بين الإناث والذكور والكبار والصغار، أي أن المعيار الجوهري هو الخبرة في المجال المحدد. وهو بخلاف النظام

الديمقراطي أو الشعبي الذي يصوغ فيه ذوو النفوذ [١] القرارات. ثم يصوت عليها بعض الذين بلغوا السن القانونية للتصويت، بدون تمييز بين ذوي الكفاءة وغير الكفاءة في الغالب. وهذا البعض قد يمثل أغلبية المؤهلين للتصويت أو لا يمثلهم. وقد تسيطر على القرارات مراكز القوة التي تتمثل في القوة المالية خاصة بصورة خفية أو مكشوفة.[٢]

بيد أن الإسلام يثني على كثير من المبادئ التي تتبناها النظم الديمقراطية، مثل مبدأ حرية التعبير عن الآراء والأفكار والمشاعر، ولكن بشرط عدم خروجها عن الآداب الإسلامية أو عدم تعديها على حقوق الآخرين. فهذه الحرية تسهم في تشخيص الواقع الذي نتعامل معه والتعرف عليه. وبدون التشخيص الجيد لن تكون هناك قرارات أو حلول صائبة. ومن الوسائل التي يقدرها الإسلام الانتخابات المشروعة بأشكالها والاحتكام إليها، ما لم تتدخل في الثوابت، مثل: مصداقية النصوص قطعية الثبوت، والواجب والحرام. كما يشجع الإسلام جميع الوسائل المشروعة المستخدمة في النظم الديمقراطية أو الشعبية لتوسيع دائرة الاستشارة قبل إصدار القرارات ووضع الأنظمة.

ومن زاوية أخرى، فإن النظام العلماني يستند في الدرجة الأولى إلى

---

(١) ذوو النفوذ سواء أكانوا مؤهلين في القضية أو غير مؤهلين وسواء استشاروا أو لم يستشيروا ذوي الخبرة. فالمعيار وجود النفوذ لإمضاء القرار، أي لديهم مهارة ووسائل للحصول على أصوات الأغلبية التي تدخل الانتخابات.

(٢) نظرا لقصر المدة المحددة لحكم المنتخب ولانعدام المحاسبة إلا أمام الناس وفي الدنيا فقط في النظام العلماني فإن هذا النظام يجعل الحكام أكثر عرضة وأيسر في التأثر بالإغراءات المالية والمصالح الشخصية.

مبدأ تصارع القوى والمساومة بين الأطراف التي لديها ما تساوم عليه ولديها مهارة في المساومة. والرابح هو من لديه قوة أكبر ولديه مهارة أكبر في المساومة. وفي ظل هذا النظام وانعدام الرقابة الخارجية، إلا من البشر الذين يمكن صناعة آرائهم أو التمويه عليهم، تجد المهارة في استخدام الوسائل غير المشروعة سبيلها في ساحة الصراع السياسي بسهولة كبيرة لتنتصر المصالح الشخصية. وقد يتم هذا النصر على حساب مصلحة الجماهير العريضة من الشعب، وإن كان برضا أغلبية صورية منها أو مخدوعة.

أما في النظام الإسلامي، فيعتبر نظام الحكم وسيلة من وسائل تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. ولا تقتصر الرقابة فيها على رقابة الجماهير، ولكن الله معهم رقيب. كما أن المحاسبة لا تقتصر على الحياة الدنيا وأمام الناس فقط. فقد يكون المجرم بريئا أمام الناس لكن الله محيط بحقيقته. وحتى الرقابة البشرية تستمد قوتها من التشريعات الربانية، ولا تقتصر على القوة البشرية في الإقناع وفي المساومة، كما هو الحال في النظم الديمقراطية أو الشعبية.

ماذا عن المواطنة والتعددية في الدين؟

لقد عرف الإسلام التعددية في أول وحدة سياسية إسلامية نشأت في المدينة المنورة.[1] فقد كانت وحدة متعددة الأعراق (قبائل الأنصار وقبائل المهاجرين، واليهود)، ومتعددة الدين (المسلمون واليهود والوثنيون).

(١) ابن هشام ج٢: ١٠٧ – ١٠٨.

ويراعـي الإسـلام حقـوق الأفـراد وحقـوق الجماعة، سـواء أكانت أغلبيـة أم أقلية، ويوازن بينهما، ولكن بنسـب متفاوتة مناسـبة لنسـبة كل منهـا. فيمنح الجماعة حقوقا لا يمنحهـا للفرد. ويمنح الأغلبية حقوقا في الشـؤون الجماعية لا يمنحها للأقلية. وذلـك لأن حق الأغلبية يرجح في الشـؤون العامة التي يتعذر فيها التعـدد، والتوحيد فيها ضروري. وبرجح الإسـلام حقوق الفـرد على حقوق الجماعة ما لم تكـن ضرورية لأغلبية الأفراد.(١)

وفي الحقيقـة، إن مصطلـح «الذمي» في العهود الأولى للإسـلام ليس إلا جزءا من مصطلح «الأقلية» الذي شـاع استخدامه في العصور الحديثة للتمييـز بين فئات المواطنين. والاختـلاف الوحيد بينهما هو أن مصطلح الذمـي يقتصر في التمييز علـى الدين؛ بينما مصطلح «الأقليـة» اليوم أكثر شمولية. فقد يكون مبنيا على صفات وراثية مثل اللون والعرق أو مكتسبة مثل اللغة والدين.

ويمنح الإسلام للأقلية في الشؤون الفردية (مثل العبادات) والحقوق المدنيـة (مثـل عقود النـكاح والإرث) حقوقها المناسـبة في ظل المبادئ العامة للدستور الذي تقره الأغلبية.

وجديـر بالذكـر أن مـا كان يسـمى بالجزيـة ويدفعهـا المواطـن غير المسـلم يمكن إدراجه تحت ما يسـمى بالضرائب. فأقصى ما كان يدفعه غير المسـلم من ماله لا يزيد عن ٥٪، أي أن ما يدفعه لا يسـاوي إلا جزءا

(١) صيني، الأمن الفكري والأنظمة.

ضئيلا جدا من الضرائب المفروضة اليوم في النظم الديمقراطية وغيرها. ويُعفى منها الصبي والمرأة والمجنون والفقير حال فقره والشيخ الكبير، ومن به مرض مزمن أو لا يرجى برؤه.(١)

ومع إقرار الإسلام بميزات الأغلبية فإنه يحرص على حقوق الأقلية، إذ يقول نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم «**أَلا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» والمقصود بالمعاهد معناه الشامل فيدخل فيه من له ذمة الله ورسوله، سواء أكان مواطنا غير مسلم أم مقيما.(٢)

ونتيجة لهذه المبادئ التي طبقها حكام المسلمين بصفة عامة استمرت المسيحية واليهودية في بلاد الشرق الأوسط التي حكمها المسلمون قرونا طويلة، بل وانتعشت فيها. والهند مثال آخر حيث حكمها المسلمون حوالي سبعة قرون ولم يجبروا أحدا من سكانها على الإسلام. لهذا فإنه لا غرابة إن بقيت الأغلبية الهندية محافظة على ديانتها الهندوسية. ومن زاوية أخرى، فإن الجيوش الإسلامية لم تصل إلى الشرق الأقصى، مثل إندونيسيا وماليزيا، ومع هذا فإن الأغلبية فيها اعتنقت الإسلام.(٣) بل وكانت الدول الإسلامية في شمال أفريقيا خير ملجأ لليهود الذين فروا من أسبانيا بسبب الاضطهاد المسيحي لهم.(٤)

---

(١) أبو يوسف ص ١٢٩-١٣٠؛ صيني، حقيقة العلاقة ص ٦٤.

(٢) سنن أبي داوود: الخراج.؛ انظر العسقلاني ج١٢: ٢٧٠-٢٧٢.

(٣) Naik p. 14.

(٤) المساري، الاعتذار عن الماضي.

ماذا عن العلاقات الإنسانية؟:

إن الإسلام يدعو إلى الخير الشامل في الدنيا والآخرة لجميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن). وحتى من يرفض الإسلام طريقا للنجاة في الآخرة، دون أن يعادي الإسلام أو يظلم المسلمين ولا يساند من يظلمهم، فإن الإسلام يجعل حسن المعاملة هي القاعدة في التعامل معه.[١] ويحث على التعاون مع غير المسلمين لتحقيق المصالح المشتركة، في الحياة المؤقتة ما لم يكن لهذا التعاون أثر سلبي على سعادة المسلم في الحياة الأبدية. فالله سبحانه وتعالى جعل التعاون بين الناس ميلا فطريا، حيث يقول﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.[٢]

وبصفة عامة فإن القاعدة العامة في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين يحددها قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٣]

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يحث جميع المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) على التعاون لتحقيق السلام في الدنيا والآخرة.[٤] والسلام – كما

(١) سورة الممتحنة: ٦٠-٦١.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) سورة الممتحنة: ٨-٩.

(٤) صيني، حقيقة العلاقة، ص ١١١-١١٤.

هـو معلوم- معنـاه إتاحة الفرصة لكل فرد راشـد لأن يعمل على إسـعاد نفسـه دون تدخـل من الآخرين، إلا أن يحاولوا مسـاعدته، بـدون إكراه، لتحقيق السعادة التي ينشدها أو التي هي أفضل منها.

وهذا يؤكد حقيقتين مهمتين:

١ - أن جزءا من الاختلاف بين الناس أمر فطري وضروري، ليتعارفوا ويتنافسوا، ولكن معيار الكسـب الحقيقي هو التقوى، أي محاولة كسب رضا الله واجتناب غضبه، وذلك بطاعته فيما أمر به وفيما نهى عنه.

٢ - أن وجـود بعـض الاختلافات بين الناس لا يمنـع من التعاون في أمور مشتركة كثيرة. بل ينبغي أن يتعاونوا فيها ليكمل بعضهم جهد البعض الآخر لتحقيق السعادة للجميع في الحياة المؤقتة وفي الحياة الأبدية أيضا، إن أمكن ذلك.

ومـن باب الإنصـاف يفرق الإسـلام بيـن المحايدين أو المسـاندين من الرافضين للإسـلام دينا لأنفسـهم وبين الرافضين المعادين للإسـلام ولأهله. فالفئة الأولى تسـمى ديارهم ديار سلم والآخرون تسمى ديارهم ديـار حرب. بيد أنه مع وجود هيئـة الأمم المتحدة فإن المرجح أن جميع الـدول الأعضـاء في الأمم المتحـدة الأصل فيهـا أن تكـون ديارهم ديار سـلم، مع عدم اسـتبعاد الحالات الاسـتثنائية التي يفرضها الواقع أحيانا ولو بصورة جزئية ومؤقتة.

وعموما مسألة التحديد هذه مقيدة بالأعراف والظروف الدولية. ومن جهـة أخـرى، فإن الـذي يملك صلاحية هـذا التصنيف - في الإسـلام -

ليس الأفراد أو الجماعات المنشقة عن الجماعة ولكن ولي الأمر، أي الجهة المسؤولة عن الدولة كلها. فنظرة الأفراد والجماعات مهما كانت مخلصة تنقصها الشمولية. وهي في الغالب تكون حماسية ومبنية على النظرة الجزئية للقضية. ولهذا فإنها كثيرا ما تنحرف عن الرأي الإسلامي الصحيح. وقد تجر الأمة أو جزءا كبيرا من الأمة إلى عواقب ليست في مصلحة الإسلام أو المسلمين. بل قد تضر بها ضررا بالغا، وقد يندم عليها كثير من المتحمسين لتلك القرارات أنفسهم. وهذا طبيعي لأن الآراء الفقهية التطبيقية يجب أن تكون مبنية ليس فقط على الفهم الكافي للنصوص، ولكن أيضا على الفهم الكافي للواقع.

وغزوة أحد خير مثال لتوضيح هذه المسألة. لقد رأى الشباب بدافع الحماس وبدافع الغيرة على الإسلام أن الخروج إلى العدو هو الأليق بالمسلمين. أما نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت البقاء في المدينة للدفاع عنها. فكانت نظرة تتسم بالشمولية، لأنها تضع في حساباتها للواقع: قوة العدو وقوة المسلمين ومصير الإسلام والمسلمين جميعا على المدى الطويل. والملاحظ أن رأي الشباب كان نابعا من استعدادهم للتضحية بأرواحهم من أجل دينهم فقط. أما رأي الرسول عليه الصلاة والسلام فكان نابعا من شعوره بالمسؤولية تجاه الإسلام ومستقبله والمسلمين جميعا وسلامتهم. وشتان بين هذا وذاك.

وهذا لا يعني أن بعض القرارات الحكومية قد لا تخدم إلا المصالح الشخصية لذوي النفوذ ولو على حساب الإسلام والمسلمين. بيد أن

الغالب على القرارات الصادرة عن الجهات المسؤولة أنها أبعد نظرا وأكثر حذرا وتحسبا للعواقب الوخيمة.

ما موقف الإسلام من الحوار عبر الأديان؟

قد يتخوف بعض أصحاب الديانات من الحوار مع أصحاب الديانات الأخرى، معتقدين بأن ما يسمى «الحوار بين الأديان» هو نوع من التنازل. وهذا غير صحيح. وعموما يمكن تصنيف الحوار «بين الأديان»، أو –على الأصح– بين ممثلي الأديان في أربعة أصناف:[١]

١. الاعتراف المتبادل بصحة جميع ديانات المشتركين في الحوار. والأصل في هذا النوع أنه مرفوض عند أصحاب الديانات ذات الطبيعة الدعوية مثل المسيحية والإسلام. وقد يندرج في هذا الصنف جميع الجهود المشتركة التي تروِّج بطريقة مباشرة لديانة الطرفين معا، وإن كانت بغير قصد منهما.

٢. الاعتراف المتبادل بوجود هذه الديانات في الواقع وبضرورة التعامل مع الاختلافات الناتجة عن الاختلاف في الدين. ويتم تسخير التحاور للوصول إلى طريقة للتعامل مع هذه الاختلافات، تحقق السلام لجميع الأطراف، وتحقق التعاون المثمر في الأمور المشتركة. والإسلام يشجع هذا لما سبق بيانه.

٣. محاولة كل صاحب دين إقناع الآخر بما يعتقد أنه الدين الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة. ولو تأملنا في جميع الجهود الدعوية

(١) صيني، الإسلام والحوار.

للرسل عليهم الصلاة والسلام لوجدنا أن المبادرة بالدعوة ليست إلا الخطوة الأولى لمثل هذا الحوار؛ وهو واجب الرسل كلهم وواجب كل الدعاة إلى الحق. فالحوار بين ممثلي الأديان المختلفة وأصحابها فرصة طيبة للدعوة إلى ما يعتقد كل طرف أنه الحق، في جو يسوده الود وصفاء الذهن مما يهيئ الفرصة المناسبة لأن يتفكر كل محاور فيما يعرضه المحاور الآخر عليه.

٤. حوار تلقائي مدمج في المعاملات التي تجري في الحياة اليومية بين أصحاب الديانات المختلفة، ويستخدم فيه الطرفان وسائل التعبير اللفظية وغير اللفظية، عن قصد أو بطريقة عفوية.

ما الموقف من منظمات حقوق الإنسان؟

كثيرا ما تقوم منظمة حقوق الإنسان وبعض المؤتمرات التي تقيمها الهيئات والمنظمات المنبثقة عن هيئة الأمم المتحدة بجهود جيدة ومشكورة في الذود عن حقوق بعض الفئات المهضومة حقوقها.

بيد أنها أحيانا تثير قضايا قانونية وسياسية تتعارض مع أهداف هيئة الأمم المتحدة. فمثلا، تحشر هذه الهيئات نفسها في التشريعات المحلية، التي لا تطبق إلا على المواطنين الذين اختاروا هذه التشريعات أو اختارتها أغلبيتهم.

نحن لا نشك في صدق نوايا كثير من العاملين في هذه المنظمات، ولكن يبدو أن هذا الحماس المخلص لبعض النشطين منهم، يسهم في صدور توصيات هي نفسها تعدُّ خرقا واضحا **لحقوق** الشعوب في تقرير

مصيرها في الدنيا وفي الآخرة. كما أن فيها انتهاك واضح **لحرية** الشعوب التي اختارت طواعية الانضمام إلى الأمم المتحدة. ويضاف إلى ذلك أن بعض الفئات المغرضة قد تتسلل إلى هذه اللجان والمنظمات لتستغلها في تحقيق مصالحها الشخصية. ومن مصالحها إفساد العلاقات بين الشعوب ومحاربة مبادئ هيئة الأمم المتحدة بطرق ملتوية، وذلك لتكون السيادة لها في النهاية. وهذا يثير عددا من التساؤلات:

١ – من أين جاءت سلطة هذه المنظمات أو المؤتمرات التي تحاول ممارستها على الشعوب؟ هل اختارتها الشعوب بالتصويت أو على الأقل أغلبيتها؟

٢ – ما شرعية قرارات أغلبية المؤتمرين؟ وإذا كانوا يمثلون الحكومة الشرعية لشعب محدد، فهل قراراتهم فوق قرارات الغالبية من الشعب الذي يمثلون حكومته؟

٣ – وإذا كانوا لا يمثلون الشعوب بواسطة الانتخاب أو الإنابة، فإلى أي قانون يستندون في التدخل في الشؤون الداخلية للشعوب؟

– هل يستندون إلى مبادئ الأمم المتحدة؟ إن تدخلهم في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء في الأمم المتحدة أول خرق لمبادئ الأمم المتحدة التي تعترف باستقلال الأعضاء.[1]

– هل يستندون إلى مبادئ الديمقراطية؟ إن عملهم هذا يُعد خرقا لمبادئ الديمقراطية التي تجعل السلطة العليا في يد الأغلبية من الشعب.

---

(١) ميثاق الأمم المتحدة، الفصل الأول، المادة الأولى، الفقرة ٢، المادة الثانية، رقم ٧.

- هل يستندون إلى مبادئ العدالة الإنسانية والحقوق الإنسانية؟ إن كثيرا من القرارات التي يؤيدونها تعد أكبر اعتداء على الحقوق الإنسانية للشعوب وأغلبيتها في بعض الدول.

إن الغالب على قرارات هذه المنظمات أنها ليست ملزمة لأي شعب، مادام أعضاؤها لا يمثلون شعبا محددا بطريقة قانونية. وهي مجرد توصيات غير ملزمة ووجهات نظر لبعض الأفراد.

وعموما فإن الإسلام يحترم جميع الجهود المبذولة في الدفاع عن المظلومين، بصرف النظر عن من يقوم بها، ويشجع على الإسهام فيها، وإن كان المظلوم من غير المسلمين.[1] لهذا فإنه يشجع هذه المنظمات على التدخل ولو أدبيا في بعض المجالات التي تبذل فيها جهودا مشكورة، ومن هذه المجالات:

١ - حين تظلم دولةٌ دولةً أخرى، ولاسيما بعد نشأة الأمم المتحدة.

٢ - حين تظلم الدولة شعوب دول أخرى أو بعض مواطنيها في ضوء قوانينها المحلية أو القوانين الدولية الملزمة. وبعبارة أخرى، تميز أثناء التطبيق بين المواطن وغير المواطن أو بين المواطنين بسبب العرق أو بسبب بعض الصفات الوراثية، ولاسيما بعد نشأة الأمم المتحدة.

٣ - حين تغتصب فئة من الغزاة أراضي وممتلكات السكان الأصليين في منطقة جغرافية محددة.

٤ - حين تحرم الحكومة بعض مواطنيها من حقوقهم الطبيعية

---

(١) صيني، علاقة المسلمين ص ٦٤-٦٥.

مثـل: نصيبهم من الثـروة الوطنية، وحقهم في التعليـم، وحقهم في اختيار العمل الذي يقدرون عليه، وحقهم في السكنى في المناطق التي يختارونها بشـروطها القابلـة للاكتسـاب، مثـل القدرة علـى دفع الثمـن والإيجار، والمحافظـة علـى النظافة العامة... أما الشـروط التي تتعـدى على حرية العقيـدة والـرأي، والمبنيـة على الصفـات الوراثيـة مثل اللـون والعرق فمرفوضة تماما.



الفصل الخامس

المرأة في الإسلام

يعزز الإسلام -بتعاليمه- الفطرة البشرية التي خلق الله الناس عليها. لقد خلق الله الناس ذكورا وإناثا ليكون هناك نوع من التخصص في مجالات أساسية لا يمكن الاستغناء عنها، ثم ليكمل بعضهما بعضا. وهما يشبهان في ذلك الليل والنهار اللذين يؤلفان اليوم، والتيار الموجب والسالب اللذين يؤلفان الطاقة الكهربائية التي تبعث الحياة أو الحركة في كثير من الجمادات.

ومما ميّز الله به الإناث حرارة العاطفة وغلبتها على سلوكهن، وذلك إضافة إلى تميز الأنثى بالرقة في الخِلقة التي تقيد حرية حركتها في أرجاء البيئة التي تعيش فيها مع الرجل. وجعلها الخالق سبحانه وتعالى تتميز بالرقة في الأخلاق، لتكون قادرة على امتصاص حدة الرجل، ولتكون جذابة توفر له المأوى النفسي اللازم فتخفف عنه همومه وتنسيه عناءه، ولتكون حنونة ومناسبة لتربية الصغار. فهي مخلوقة ناعمة وأكثر استعدادا للتضحية بنفسها في سبيل إسعاد الآخرين. وهذه الصفات والمكونات البشرية لا تستغني عنها أي أسرة سعيدة أو مجتمع. فقد أثبتت التجارب العلمية أن المرأة أكثر قدرة على احتمال الأوضاع النفسية الصعبة، وأكثر استعدادا للشفاء من الصدمات النفسية.

ومن جهة أخرى، فإن الله خلق الرجل متصفا بالخشونة التي تتيح له فرصة التجول في مساحة أكبر من حيث الموقع ومن حيث الوقت.

فالرجـل أقدر جسـميا على حماية نفسـه مـن المخاطر التـي قد يتعرض لها الإنسـان، ويجعله ذلك أقل عرضة للاعتـداء. كما يغلب على تكوينه النفسـي أنه أقدر على الثبـات أمام كثير من الأحـداث، مثل ظهور بعض الحشـرات أو الحيوانات بصـورة مفاجئة. ولهذا، فهو يجـرؤ على ارتياد مواقع مأهولة أو موحشة أو محفوفة بالمخاطر، بجسارة وبسلامة أكبر مما هـو متاح للمرأة. وهو يجرؤ وبأمان أن يتحرك في أرجاء البيئة المسـكونة والموحشة، حتى في الساعات المتأخرة من الليل أكثر من المرأة.

وعمومـا عندما نتحدث عن الصفات التي تميـز الرجل أو المرأة فإن هـذا لا ينفـي وجود حـالات اسـتثنائية، حيث يـبرز الرجـل في مجالات اختصاص المرأة وتبرز المرأة في مجالات اختصاص الرجل.

وسـيتضح معنا فيما يلي أن الإسـلام جعل المرأة مسـاوية للرجل في الأهميـة في كثيـر من الأمور قبـل أربعة عشـر قرنا، وجعلهـا أعلى مكانة في بعـض الأمور. أما التشـريعات البشـرية فلم تمنحها كثيـرا من حقوقها الأساسـية إلا في القـرن الماضـي. كما منحها الإسـلام حقوقا لم تحصل عليها بعدُ مثل إعفائها من المسؤولية المالية تجاه الأسرة.

ما مكانة المرأة في مقابل مكانة الرجـل؟

هناك نصوص يسـتدل البعض بها للتدليل على خلاف القاعدة العامة في العلاقـة الطبيعة بيـن الرجل والمرأة، التي تشـبه علاقة النهـار بالليل، حيث الاختلاف في الطبيعة مع التكافؤ في الأهمية.

ومن النماذج على الخطأ في فهم النص بسبب تجريده من السياق قول

الرسول صلى الله عليه وسلم «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ. فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ. مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ. قُلْنَ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا.**»[١]

فالسياق هو أن اليوم كان يوم عيد ويريد الرسول صلى الله عليه وسلم حثهن على التصدق. فهي مناسبة طيبة لمداعبتهن بقول يرتكز على حقائق جزئية هي: أن شهادتهن في بعض الأمور بنصف شهادة الرجل، والإعفاء من الصلاة بدون قضاء، وتأجيل صوم رمضان إلى أيام أخر. وجاءت الدعابة مدحا في صيغة ذم، **أي ناقصات عقل ودين، ولكن قادرات على التحكم في عقول الرجال الأشداء.**

وإذا كن أكثر أهل النار فذلك طبيعي لأن عددهن أكبر من عدد الرجال إضافة إلى عوامل أخرى. وأما كونهن يكفرن العشير بالمبالغة في نكران الخير فهي طبيعة لازمة للإنسان العاطفي.

وعلى وجه العموم فإن مكانة المرأة – في الإسلام – في مقابل مكانة الرجل تقع في فئات ثلاث:

أ – حالات تتساوى فيها المرأة مع الرجل. لقد جعل الإسلام النساء شقائق الرجال، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.[٢]

---

(١) صحيح البخاري: الحيض.

(٢) الترمذي: الطهارة.

وجعل الرجال والنساء أوصياء بعضهم على بعض، حيث يقول تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ... ﴾[١] ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾.[٢] ويقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾[٣] ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.[٤] ويُحمِّل الإسلام المرأة نصف المسؤولية فقط بالنسبة لخروج آدم وحواء من الجنة.[٥] بل، ويُحمِّل الرجل المسؤولية الكبرى في ذلك لأن القرار النهائي في يده.[٦]

ب – حالات تميزت فيها المرأة على الرجل. لقد جعل الإسلام حقوق

---

(١) سورة التوبة: ٧١.

(٢) سورة النساء: ٣٢.

(٣) سورة النحل: ٩٧.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٥) سورة البقرة: ٣٦.

(٦) سورة طه: ١٢١.

الأم في الإسلام أعظم من حقوق الأب.[١] وفي المملكة العربية السعودية، مثلا يمنح نظام الموظفين الحكومي إجازة -حدها الأدنى- خمسا وأربعين يوما للوالـدة، اعتمادا على التقدير الذي ورد في الحديث النبوي عن مدة النفاس، وذلك إضافة إلى إجازتها السـنوية.[٢] وبنـاء على مقدار عدة المرأة عند وفاة زوجهـا المنصوص عليها في القرآن الكريم[٣] يمنحها نظام الموظفين حوالي مائـة يوم إجازة خاصة غير إجازتها السـنوية. وليس للرجال حق مماثل. كما سـمح لها الإسـلام بلبس الذهب ولبـس الحرير دون الرجـال. وأعفاها من الصلاة في الشهر أسبوعا أثناء الحيض وبعد الولادة أكثر من شهر.

ولـم يقتصـر الأمر علـى ذلك فقد جعل الإسـلام لتربيتهـن فضلا لم يجعلـه للذكـور، حيـث يقول الرسـول صلى الله عليـه وسـلم « **لَا يَكُونُ لِأَحَدِكُمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ فَيُحْسِـنُ إِلَيْهِنَّ إلا دَخَلَ الْجَنَّةَ.** »[٤] وكذلك يقول الرسـول صلى الله عليه وسلم: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**».[٥] فيجعل الإحسان إلى الزوجة معيارا لدرجة خيرية الرجل.

فهل نقول بأن الإسلام يمارس التمييز العنصري ضد الرجل؟

ج – منـح الرجـل صلاحيات ومزايا. لقد جعل الإسـلام الرئاسـة في الأسـرة للرجل وزاد نصيبه في الإرث، عندما يكون مسـؤولا عن الأنثى،

(١) انظر مثلا: البخاري: الأدب.

(٢) الترمذي، الطهارة.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٤.

(٤) الترمذي: البر والصلة.

(٥) الترمذي: المناقب.

وجعل شهادته ضعف شهادة المرأة في بعض الأمور. وفي مقابل ذلك حمّله مسؤوليات أعفى المرأة منها، حيث جعل الرجل مسئولا عن أسرته ماليا، في حدود المصاريف الأساسية، وجعله الحارس لها.

وهكذا نلاحظ أن الإسلام يجعلهما متماثلين في أشياء كثيرة وجعل لكل منهما ميزات. وبهذا يساوى الإسلام بينهما ليس مساواة النهار بالنهار والليل بالليل، ولكن مساواة الليل بالنهار في الأهمية، وفي عدم استغناء الحياة المثالية عنهما، كما أن اليوم الكامل لا يستغني عن النهار أو الليل.

وعموما عندما نتحدث عن الإسلام فإنه ينبغي التفريق بين الإسلام وبين تطبيقات المسلمين التي قد تنحرف كثيرا عن التعاليم الإسلامية، وذلك لأنهما شيئان مختلفان. وخير للمرأة المسلمة أن تطالب بحقها في الإسلام، بدلا من المطالبة بالمساواة مع الرجل، حسب المفهوم العلماني، وذلك لأن المساواة ستفقدها كثيرا من الحقوق الفطرية التي يؤكدها الإسلام.

ولو راجعنا نصوص الثورة الفرنسية التي يتغنى بها المنادون بالمساواة غير الواقعية ودساتير كثير من الدول ومنها الديمقراطية العلمانية لوجدنا أنها لم تعترف بحق المرأة في كثير من الأمور، التي ضمنها الإسلام لها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، إلا في القرون الأخيرة. ليس هذا فحسب بل هناك حقوق لم تمنحها لها بعدُ مثل إعفائها من المسؤولية المالية

الخاصة بأسرتها وباستقلالها ماديا بصورة تامة.[(١)]

فهل بعد هذه الحقائق ترغب المسلمة العاقلة في الحصول على ما حصلت عليه المرأة الغربية وتتنازل عن الحقوق والامتيازات التي منحها لها الإسلام؟

ما مكانة المرأة في النشاط السياسي؟

للصفات الفطرية التي سبق الحديث عنها، عند بيان وضع المرأة في الإسلام، تبين معنا أنه لكل من الرجل والمرأة صفات تميزه عن الآخر. كما بدا واضحا أن الصفات التي يتميز بها الرجل تجعله – في الغالب – أصلح للولاية الكبرى، ولاسيما إذا كانت هذه الولاية تجمع صلاحية الاجتهاد والقضاء والتنفيذ.[(٢)] وأما الولايات الأخرى فقد اختلف في بعضها فقهاء المسلمين. ومن هذه المجالات التي اختلفوا فيها: القضاء، والحسبة (الوظيفة الرسمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والوظائف الإدارية الأخرى.

ولكن من المؤكد أن الإسلام يجعل المرأة مؤهلة لتحمل المسؤولية. فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: « **كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ**

---

(١) الدواليبي، حقوق الإنسان ص ٤–٥؛ وانظر مثلا الدستور الأمريكي الذي صدر في ١٧٨٧ ويقتصر الحق الكامل للمواطَنة على البيض الأحرار ولم يتم منح المرأة حق الانتخاب صراحة إلا في عام ١٩٢٠؛ انظر دورين، التجربة الدستورية.

(٢) ويستند ذلك إلى تعليق للنبي صلى الله عليه وسلم عندما قيل له أن الفرس ملكوا عليهم امرأة: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً" (البخاري: المغازي). ويعلق البعض بأن هذا القول لا يدل على تحريم تولية المرأة ولكنه تنبؤ لما سيحدث لفارس. وقد صدقت نبوئته، عليه الصلاة والسلام.

عَـنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْـئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا...وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». [١]

كما أن الإسلام لم يهمل المشورة المتميزة للمرأة. فقد أخذ رسول رب العالمين الذي ينزل عليه الوحي مشورة زوجته أم سلمة رضي الله عنها، عندما رفض أصحابه تنفيذ أمره بحل الإحرام، تعبيرا عن عدم القناعة بفقرة في اتفاقية السلام مع قريش التي كانت تضطهد المسلمين. وكانت الفقرة تقول بأن على المسلمين إعادة من يسلم من قريش إليها ولا ترد قريش من يهرب إليها من المسلمين. فقد أشارت عليه أم المؤمنين بأن يبدأ هو في حل إحرامه دون أن يكلمهم. ففعل رسول الله ما أشارت عليه، فبادر الجميع إلى فعل ذلك. [٢]

لماذا شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل أحيانا؟

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ... وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ .﴾ [٣]

الآية إرشاد عام للمتعاملين بمعاملات مالية مؤجلة. وهناك فرق بين الشهادة التي قد يعتمدها القاضي والشهادة التي يُوصى بها أصحاب الحقوق عند إبرام العقود. ففي الحالة الأولى يقوم الواقع بفرض شروطه

(١) صحيح البخاري: الجمعة.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣: ٢٩٥.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٢؛ وانظر مثلا تفسير ابن كثير.

الخاصة على الشهادة، مثل رفض شهادة القريب في بعض القضايا وإن كان رجلا مع قبول شهادة المرأة الأجنبية.

ويضاف إلى ذلك أن الإسلام قد جعل مسؤولية الإشراف على الأسرة على عاتق الرجل فكانت له الرئاسة في الأسرة بسبب الصفات الخاصة التي توفرت له ولم تتوفر للمرأة. ومن الطبيعي أن يكون لقول المسؤولين ورأيهم وزن أكبر حتى في النظم الديمقراطية. فرأي الرئيس يعتبر مرجحا للنصف الذي هو معهم عندما تنقسم الأصوات إلى نصفين في القضية المحددة.

وفي ضوء الاختلافات الفطرية التي سبقت الإشارة إليها كان الرجل أكثر إحاطة بالبيئة الواسعة، وأصلح للشهادة في كثير من القضايا، وكان لشهادته وزن أكبر، وأقل تعرضا للخطر في حالة الشهادات التي قد تترتب عليها مخاطر.

وهناك مجالات أخرى تعتبر فيها شهادة المرأة مساوية لشهادة الرجل[1] وفي قضايا ذات أهمية كبرى. ومثال ذلك أن المسلمين تعلموا كثيرا من أمور دينهم عن طريق زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم. وهناك أمور تتعلق بعورات الإناث لا يمكن للرجل أن يشهد فيها. فالشهادة فيها مقتصرة على المرأة، وكذلك الحال بالنسبة للرجال. فالمسألة ليست مسألة أقل شأنا أو أعظم شأنا ولكن الأصلح في قضية محددة.

---

(١) سورة النور: ٦-٩. يقسم الزوج أربع مرات ليثبت إدانة زوجته بتهمة الزنى فتقسم زوجته أربع مرات لتدفع عن نفسها هذه التهمة.

كمـا أن المرأة أصلح لرعاية الأطفال. ولهذا نجد كثيرا من المحاكم، حتـى في الدول ذات النظام اللاديني، تجعـل حضانة الأطفال إلى الأم في حالة انفصال الأبوين. (الولايات المتحدة الأمريكية مثلا) فهل نقول: إن هـذا النظام يهضم حقوق الرجل ويحرمه من المسـاواة مع المرأة؟ أو أن الإسلام يحرم المرأة من المساواة مع الرجل؟

طبعـا. لا نقـول ذلك، ولكـن نقـول: إن الأم أصلح لرعايـة الأطفال الصغار من الرجل، والرجل أقدر على الشهادة في كثير من القضايا.

لماذا ترث المرأة نصف ما يرثه الرجل أحيانا؟

انطلاقـا من الحقائق الفطرية السـابقة فإن الإسـلام يجعل مسـؤولية توفيـر العيش علـى الرجل، سـواء بالنسـبة لزوجتـه وأولاده أو بالنسـبة لوالديه العاجزين عن العمل أو إخوته غير القادرين على العمل أو أخواته غير المتزوجات اللاتي لا عائل لهن. ولم يجعل ذلك من مسؤولية المرأة حتى تجاه والديها ومن يعولان من الصغار.

لهذا، فإن الإسلام لا يجيز مثلا: للمسلم أن يدفع زكاة ماله المفروضة عليـه إلـى زوجتـه أو أولاده، وذلك لأن الأصل أن يكفيهـم حاجتهم من بـاب القيـام بالواجب، وليس من بـاب التصدق. فالـزكاة لا يجوز دفعها إلا في مصـارف محـددة لا يجـوز صرفها في غيرها. وهـذه المصارف إما أنها تسـد حاجة شبه دائمة أو مؤقتة لبعض المسـتحقين أو تحقق مصالح عليـا. فالله سـبحانه وتعالى يقـول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.(١)

وتحتفظ المرأة بممتلكاتها التي جمعتها قبل الزواج وعقب الزواج بصورة مستقلة. بل وتستطيع أن تستأجر زوجها لإدارة أموالها الخاصة. وكفل لها الإسلام الاحتفاظ بشخصيتها القانونية المستقلة قبل الزواج وبعد الزواج. فالمرأة قبل الزواج تنتسب إلى أسرة أبيها؛ وهي بعد الزواج كذلك. ولا يتغير لقبها بعد الزواج، كما هو الشائع في كثير من المجتمعات المتحضرة ماديا، حيث تأخذ لقب أبيها قبل الزواج، ويلزمها العرف أو القانون بلقب زوجها بعد الزواج، وكأن «ملكيتها» تنتقل من أسرة أبيها إلى أسرة زوجها بعد الزواج.

ولو تأملنا الآية الحادية عشرة من سورة النساء لوجدنا أن الزيادة في الميراث مرهونة بالمسؤولية والنفع. فإذا انعدمت المسؤولية المباشرة فإن الزيادة تنعدم. فالله تعالى يقول: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١ ﴾.(٢)

فالابنة الوحيدة ترث نصف مال والدها ويشترك بقية الورثة: ذكورا

---

(١) () سورة التوبة: ٦٠.

(٢) سورة النساء: ١١.

وإناثا في النصف الآخر، أو ترث الابنتان ثلثي مال والدهما ويشـترك بقية الورثة في الثلث.

فالإرث تحدده درجة القرابة المرتبطة بدرجة المسؤولية.

والإرث –عموما– ليس المصدر الوحيد للدخل المادي. بل لا ينبغي أن يكـون مصـدرا يعتمد عليه الإنسـان كلية. فقد خلـق الله الناس ذكورا وإناثـا، وميّـز كلا منهم بمميزات يحتـاج إليها المجتمع الإنسـاني، ووفّر لكل منهما العقل وفرص الكسـب الذاتي. وأما العاجز فأوكل مسـؤوليته إلـى الأعضاء الأصحاء في المجتمـع. فجعل له نصيبـا في دخل القادرين منهم وسماه الزكاة المفروضة وحث على التصدق عليه أيضا.

أمـا في الغـرب فـإن طالبـت المـرأة بالمسـاواة في الإرث فذلـك من حقها، مادامت مسـؤوليتها مساوية لمسؤولية الرجل تجاه الأسرة. ويحق لهـا ذلك ولاسـيما أن كثيرا من القوانين الوضعية تقسـم ثـروة المطلقين بالتسـاوي بين الرجل والمرأة، عند انفصال الزوجين. وربما تكون المرأة قد بذلت جهدا أكبر في جمع تلك الثروة أو أنها قد ورثت مالها من قريب، ولم يسهم زوجها في جمعه بأي شكل من الأشكال.

ما القاعدة في زواج المرأة وطلاقها؟

الأصل في الإسـلام أن المرأة لا تتـزوج إلا بولي أمر، وهناك حالات استثنائية يجيز فيها الفقهاء تزويج نفسها أو بواسطة وكيل تختاره هي. ولا تتـزوج المرأة إلا بموافقة ولي أمرها لأن الأنثى قبل الزواج يصرف عليها والدها أو أخوها أو ابنها؛ وإذا فشل الزواج عادت إلي ولي أمرها ليصرف

عليها من جديد. وإذا عجز الزوج أو رفض الصرف على أولاده يضطر ولي أمرها إلى تأمين معيشة أولادها أيضا وتربيتهم.

أما الطلاق فقد جعله الإسلام في يد الرجل لأن المرأة عندما تتزوج يكلف الإسلام الرجل بدفع مهر لها ولا تدفع له شيئا. وهو مسؤول عن تأثيث بيتها وليست مسؤولة عن ذلك. وهو الذي يقوم بتأمين سكنها ومأكلها ومشربها وملبسها في الحدود اللازمة إضافة إلى علاجها إذا مرضت. وهو الذي يصرف على أولادها حتى إذا فشلت الحياة الزوجية وافترقا.

ويضاف إلى ذلك أن الزوج في أسرته مثل الحكومة في الدولة يحتاج إلى صلاحيات، ومنها صلاحية عقوبة من يضر بمصلحة الأسرة حتى يتمكن من أداء مسئولياته. فأي نظام حكم صالح لا يمكن أن يخلوا من أنظمة للعقوبة، تطبق على المستحقين لها. ولهذا كان من صلاحية رب الأسرة التأديب ولو بالضرب كوسيلة أخيرة قبل الطلاق. ولكن ليس الضرب الذي فيه مهانة كالضرب على الوجه أو الضرب الذي يتعارض مع ما جعله الله من المودة والرحمة بالفطرة بين أفراد الأسرة الواحدة، وخاصة بين الزوجين.[١]

ومنح الإسلام الزوجة الفرصة للتظلم إلى أهلها وإلى الجهات الرسمية، وإلى المحكمين ومنحها حق الحصول على الطلاق لتقصير الزوج في أداء واجبات الزوجية. كما أن في إمكانها شراء طلاقها من زوجها

---

(١) صيني، الخطاب الإسلامي.

إذا كانت لا ترغب فيه، بإعادة المهر وتعويضه عن تكاليف الزواج مثلا.

ومن زاويـة أخرى، فإن الطـلاق أبغض الحلال إلـى الله.[١] والرجل بحكـم طبيعته التي يغلـب عليها العقلانيـة مقارنة بالمـرأة ولأنه يتحمل تكاليـف الزواج ويتحمـل مصاريف الأولاد حتى بعـد الطلاق فإنه – في الغالب – أكثر حرصا على استمرار الحياة الزوجية.

لماذا لا يمكن للمسلمة الزواج من غير المسلم؟

لعـل من أمثلة حرص الإسـلام علـى حقوق المرأة أيضا أنه لا يسـمح للمرأة أن تتزوج رجلا لا يلزمه دينه احترام ديانتها. ولهذا فإن الإسلام يحرم على المسلمة الزواج من غير المسلم. ويسمح للمسلم بأن يتزوج اليهودية أو النصرانيـة، حيـث يقـول تعالـى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ ... ﴾[٢] والواضـح من النصوص الصريحة أن اسـتثناء التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين مقتصر على زواج المسلم بالكتابية فقط.[٣] والحكمة في ذلك كما يظهر لنا هي لسببين رئيسين:

١ – اليهودية والنصرانية من الرسـالات التي يعترف الإسلام بصيغها الأصليـة، وتندرج تحت اسـم «الإسـلام» بمعناه العام كمـا ورد في عدد

(١) أبو داوود: الطلاق.

(٢) مثلا: سورة المائدة: ٥.

(٣) صيني، الخطاب الإسلامي.

مـن الآيات القرآنية.[١] فالزوج المسـلم ملزم باحترام أنبياء الله السـابقين بالنسبة لليهودية والمسيحية، وأما الزوج غير المسلم فهو غير ملزم، وفقا لتعاليم دينه، باحترام نبي الإسلام، بل إن التزامه بدينه معناه إنكاره رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن الإسـلام لا يسـمح للمسـلم بالزواج من الوثنية أو التي لا دين لها، وذلك لأن دينه لا يقر الوثنية أو اللادينية فتكون زوجته عرضة لظلمه لها أو لعدم احترامه لها.

٢ - ضمـن الإسـلام للزوجـة حقوقـا، منها الاسـتقلال والمسـاواة الواقعيـة، وألزم الزوج المسـلم بهـا. وهو دين رباني، لا يقبـل التغيير. أما بالنسـبة للزوج غير المسـلم فهو إما أنـه لاديني، أو أن ديانته ليسـت فيها تشـريعات ملزمة تحفـظ للزوجة حقوقها، وتخضع التشـريعات الخاصة بحقـوق المـرأة لـرأي الأغلبية الذي قـد يصيب الحق وقـد يخطئه، وقد يتغير مع تغير الزمان. ومن ينظر إلى حقوق المرأة في الدول العلمانية التي تخضع فيها التشريعات لتصويت الأغلبية يرى تناقضات كثيرة وتعديلات مستمرة.

فالإسـلام حريص على حماية حقوق المرأة من الضياع وكرامتها من أن تهان. وإذ يحرص الإسلام على حقوق المرأة المسلمة فإنه لا يعارض الأديـان الأخـرى إذا منعـت إناثها من الـزواج بالمسـلمين، حرصا على

---

(١) انظـر مثلا: سـورة البقـرة: ١٢٨، ١٣٢-١٣٣؛ آل عمران: ٦٧؛ يونـس: ٧، ٩٠؛ وانظرالقاضي حيث يورد أكثر من عشرين آية في هذا المعنى.

مصالحهن من وجهة نظر ديانتهن.

لماذا يسمح الإسلام بتعدد الزوجات؟

صحيح أن الإسلام يسمح للرجل بالزواج إلى أربع زوجات، ولكن يشترط عليه العدل بينهن. يقول تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ...﴾[١] ويؤكد الله تعالى أن العدل الكامل مستحيل في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ ...﴾.[٢]

لقد نظر كثير من النساء إلى هذا الإذن للرجال نظرة سلبية. وهو في واقع الأمر وعند التأمل منحة ربانية للإناث اللاتي لم يتزوجن بعد، للأسباب التالية:

١ - من الملاحظ أن عدد الإناث في العالم أضعاف عدد الذكور. وهذا يعني أن جزءا كبيرا من الإناث لن يتزوجن إذا كان لكل رجل امرأة واحدة، حتى مع إغفال الحقيقة التي تفيد بأن أعمار النساء في الغالب أطول من أعمار الرجال.

٢ - هذه المنحة الربانية تزيد من فرصة زواج الأنثى أربعة أضعاف. فبدلا من أن تكون فرصتها للزواج واحدة، مثلا إذا كان الرجل لا يتزوج إلا واحدة فإن فرصتها ترتفع إلى أربعة أضعاف إذا سمحنا للرجل بالزواج من أربع. وعموما، هي فرصة موجودة إذا احتاجت إليها الأنثى،

---

(١) سورة النساء: ٣.

(٢) سورة النساء: ١٢٩.

ولا يجبرها الإسلام على الاستفادة منها.

٣-كونها زوجة شريكة لأخريات، لها حقوقها الأدبية والمالية وفرصة لإشباع غريزة الأمومة خير من لا زواج البتة. وهو خير من إشباع رغباتها الجنسية بطريقة غير مشروعة مع الحرمان من كثير من الحقوق الأدبية والمالية، والحرمان من إشباع غريزة الأمومة أو تحمل مسؤوليات مالية وأدبية كبيرة قد لا تطيقها أو تكون سببا في تنغيص حياتها. وإضافة إلى هذا فإن هذا السلوك الذي ترفضه الفطرة سيجعلها أكثر عرضة للاستغلال من قبل الرجل وأكثر عرضة للمهانة والمذلة في الغالب، والشقاء حتى في الدنيا.

وأما بالنسبة للمتزوجات فمن الطبيعي أن ينظرن إلى التعدد نظرة سلبية، وذلك بحكم الغيرة الفطرية والأنانية. بيد أن هناك حكيمات يرين في ذلك فرصة لكسب الأجر وفرصة لإشباع غريزة حب الخير التي فطر الله الناس عليها. لهذا، لا يمانعن من مشاركة غيرهن في أزواجهن.

والمسألة عموما ليست بهذا السوء، خاصة في المجتمعات التي لا تطبق الحجاب الإسلامي، وذلك لأن الرجل قد تعجبه أو تغريه امرأة غير متزوجة فيضطر إلى طلاق زوجته ليتزوجها. أما التعدد فيمنح المتزوجة فرصة الاحتفاظ بزوجها.

وقد تتساءل المرأة ولماذا لا يسمح الإسلام للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل واحد؟ وهو سؤال يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه وجيه. ولكن ما مصلحة المرأة في ذلك؟ فهل هذا سيضمن لها الأب المسؤول عن

أولادها؟ وهل هذا سيضمن لها الرجل الذي تعتد به في النوائب وتحتمي به وتجده عندما تحتاجه، خاصة عندما تصبح عاجزة بسبب مرض أو كبر سن؟

إن الإجابة الواقعية على هذه الأسئلة هي: لا. فالسماح بتعدد الرجال للمـرأة الواحدة هي فرصة طيبة للرجـال للهروب من الأعباء التي تترتب على العلاقة الجنسـية. وهي سـبب من أسـباب ضياع مسـتقبل الأولاد، وغير ذلك مما ترفضه المرأة العاقلة.

ما موقف الإسلام من قيادة المرأة للسيارة؟

انطلاقـا مـن مبدأ أن الحكـم الصائب ينطلق من التفاعـل المتقن بين النصـوص والواقع فإننا نسـتطيع القول بأن الإسـلام لا يمنـع المرأة من قيادة السـيارة، ولا يحثها على ذلك. فالأمر في الغالب مرهون بالبيئة التي تعيش فيها المرأة. فالمرأة في بعض المجتمعات الإسلامية مثلا تميل إلى أن تسـتخدم الحد الأقصى من الحجاب المفروض عليها شـرعا، أي أنها تفضـل أن تغطي وجهها، متبعـة في ذلك رأي بعض علماء المسـلمين في مسـألة تسـمح بالتعدد في الرأي. والمجتمع في مثل هـذه البيئات قد تعود علـى ذلك ويفرضه على أفـراده. وفي مثل هذه البيئة مـن الخير للمرأة أن يقود السـيارة غيرها، وتُخدم بدلا من أن تقود السـيارة هي بنفسها. وهذا يتفـق مع الميل الطبيعـي. فكثير من الناس يحبون أن يكون لديهم سـائق خاص أو شـبه خاص يقود السـيارة بهم، ما دامت هـذه الميزة لا تكلفهم مبالغ كبيرة.

أمـا إذا كانت المرأة المسـلمة تعيش في بيئة تفضل معظم النسـاء فيها استخدام الحد الأدنى من الحجاب، آخذين برأي علماء مسلمين آخرين، أي يكشـفن وجوههـن، مع لبـس الملابس المحتشـمة السـاترة وتغطية الـرأس والأجزاء التي تعتبر عورة، والبيئة التي تعيش فيها لا ترى في ذلك بأسًـا فإنه يمكنهن قيادة السـيارات بأنفسـهن. وحتى في هذه المجتمعات فإن الكثيرات يفضلن التمتع برفاهية وجود سائق خاص يسوق عنهن.

لماذا الحجاب للمرأة؟

لعـل غير المسـلمة تتسـاءل ولمـاذا الحجـاب للمرأة؟ وأقـول «غير المسـلمة» لأن المسـلمة تدرك وتؤمن بأن الله لا يوجب عليها شـيئا ليس فيه خير لها، وأنها ستكون عرضة لعقابه إذا لم تمتثل أوامره. نعم، قد ينظر البعض إلى حجاب المرأة نظرة سلبية، والأولى أن ينظر إليها نظرة واقعية لتظهر له إيجابيته بالنسبة للمرأة خاصة.

إن الحجاب الإسلامي يعطي المرأة مهابة خاصة، يعوضها جزئيا عن ضعف جسـمها ورقتها، فيسهم في حمايتها من الأذى الذي قد تتعرض له غير المتحجبة وأقلها التجرأ عليها. وهذا طبيعي، فالحجاب عموما يُعتبر نوعا من الحواجز النفسـية ذات الأشـكال المتعددة، مثـل نظافة الثياب، وحسـن ترتيبها وحسـن مظهرهـا، واقتناء الأشـياء الفاخرة أو اسـتخدام السـائق أو اسـتخدام سـكرتير أو حارس فهـذه الحواجـز – في الغالب– تضفي شيئا من المهابة على من يستعملها، وتوفر له شيئا من الحماية ضد الأذى. ولهذا يحرص ذوو المكانة العالية في المجتمع على الاستفادة منها

أو الاستمتاع بها. ولعل هذا هو أحد أسباب استخدام الزي العسكري أو الرسمي عموما.

ولا أعتقد أن أحدا ينكر هذه الحقيقة الواقعية. والإسلام بصفته دينا عمليا يعترف بالميل البشري إلى الكماليات، ولا يهمله بل ويعمل على تسخيره في سبل الخير. بيد أنه يكره المبالغة فيه، بحيث تُنسي الإنسان أن الصفات الجوهرية هي الأصل، ولاسيما أن الصفات الجوهرية تحتاج إلى المجهود الشخصي لاكتسابه. فمن هذه الصفات التقوى، والإخلاص، والأخلاق العالية، والعلم والمهارة العالية في الأداء. أما الصفات التكميلية أو المظهرية فيمكن الحصول عليها عن طريق الوراثة أو المنحة أو الاستعارة.

يضاف إلى ذلك أن الأنثى بطبيعتها جذابة حتى مع الحجاب وعندما تكشف عن كل عناصر جاذبيتها تفقد جزءا كبيرا من مصادر قوتها في جذب الأزواج، وليس المعجبين الذين يريدون الاستمتاع بالمجان.



الفصل السادس

الإسلام يرفض الإرهاب العدوائي والعنف

لا يفـرق كثير من كبار القادة السياسـيين وأربـاب الفكر بين «العنف» violence وبيـن «الإرعـاب» terrorism، وبيـن العنـف والإرعـاب العدواني وبين العنف والإرعاب الضروري.

وأقـول «الإرعـاب» وليـس الإرهـاب ترجمـة للكلمـة الأجنبيـة terrorisms، وذلـك لأن أصـل كلمـة «الرهـب» ومشـتقاتها في القرآن الكريـم تعنـي درجة من الخوف ليسـت شـديدة ويغلب عليهـا أن تكون ممزوجـة بالاحترام تجاه شـيء محدد، وقد يحدثه الإنسـان في الآخرين لاتقـاء شـرهم.[١] وتختلـف عن كلمـة «الرعـب»[٢] التي هـي درجة من الخوف شديدة وتعني الفزع والهلع، وقد يحدثه الإنسان عقوبة للآخرين أو لظلمهم، وكثيرا ما يقع لأسباب غير مقصودة أو غير محددة أو مجهولة تماما.[٣]

وهناك فـرق واضح بين العنـف والإرهاب. فالعنف يعني اسـتخدام وسـائل ماديـة عنيفـة مثـل: الضـرب، والتعذيب الجسـدي واسـتخدام السـلاح... للتعبير عن إحسـاس أو معتقدات أو آراء، أو لتحقيق أهداف عامة أو خاصة.

---

(١) انظر الآيات: سورة البقرة: ٤٠؛ الأعراف ١٥٤؛ القصص: ٣٢؛ الأنبياء: ٩٠.

(٢) انظـر الآيـات: سـورة آل عمـران:١٥١؛ الأنفـال: ١٢؛ الكهف: ١٨؛سـورة الأحـزاب: ٢٦؛ الحشر: ٢.

(٣) انظر مثلا: ابن منظور، البستاني.

وأما الإرهاب والإرعاب فهما أشمل لأنهما قد يكونان بالوسائل العنيفة أو بالوسائل غير العنيفة مثل: الاستفزاز بالحركات أو الإشارات (يشير عليه وكأنه يريد أن يذبحه) أو بالكلام. فمن الإرعاب والإرهاب التهديد بالحصار الاقتصادي، والتهديد باستخدام الأسلحة النووية... ويشمل الإرهاب والإرعاب استخدام حق الفيتو أو التصويت ضد قرار يدين المعتدي. وقد يكونان ببث تهمة باطلة مثل القذف وشن حملة إعلامية جائرة لتشويه سمعة المستهدف أو لإثارة الحقد ضده.

وقد لا يقتل الإرهاب والإرعاب الضحية على الفور ولكن يقتلانها على المدى الطويل، بعد عذاب ومعاناة طويلة، أي يؤديان إلى موتها موتا بطيئا، وذلك بتعريضها للتشرد وللجوع...

ويلاحظ أن الإرهاب والإرعاب في العربية ليسا شرا محضا ولا خيرا محضا في ذاتهما. فهما وسيلتان لا تتحيزان للخير أو للشر. ويمكن استخدامهما لإحقاق الحق ولدفع الباطل ولنصرة المظلوم؛ كما يمكن استخدامهما لظلم المسالم البريء ولسلب ممتلكات الناس وأموالهم بالباطل وتجريدهم من حقوقهم والاستيلاء على أراضيهم. وبعبارة أخرى، يمكننا التمييز بين نوعين من الإرهاب أو الإرعاب: العدواني، والدفاعي. ويتسم العدواني بأنه لا يلتزم بضوابط، ولكن الدفاعي، في الغالب، يلتزم بالفطرة أو بالقوانين.

ومن المعلوم عند أصحاب الرسالات الإلهية أن الحياة في الدنيا هي عبارة عن اختبار يميز بين الصالح الذي يستحق المكافأة في الحياة

الأبدية، بصفة خاصة، أو الطالح الذي يستحق العقوبة في الحياة الأبدية، بصفة خاصة. والصراع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل وبين الظالم والمظلوم لون من ألوان هذا الاختبار، إذ يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.[١]

وقد يقع الإرهاب والإرعاب بدون قصد المتسبب فيهما، وربما يقعان بخلاف ما أراده. أما إذا تم تنبيهه إلى ذلك ولم يتوقف عن فعل ما يسبب الإرهاب أو الإرعاب فإنهما يأخذان حكم الإرهاب والإرعاب المتعمد.

ولأن الإسلام يدعو إلى السلام الشامل في الدنيا والآخرة أو في الدنيا فقط بين المختلفين في الدين، فإنه يحرم استخدام الإرهاب والإرعاب لظلم الآخرين والعدوان عليهم تحريما باتا. وينكر ذلك أشد الإنكار، ويعاقب عليهما بالعقوبة الرادعة، بعد التأكد من كونه إرهابا أو إرعابا عدوانيا وظلما.

ويجيز الإسلام استخدامهما بضوابط تكفل حصر العقوبة في المعتدي وبحيث لا تتجاوز الحد اللازم، وذلك للدفاع عن النفس ولرد الاعتداء ولنصرة المظلومين، ولاسيما الضعفة الذين لا حيلة لهم في دفع الظلم عن أنفسهم. وهذا ما يسمى في الإسلام ب«الجهاد»[٢] أو «القتال

---

(١) سورة الحج: ٤٠.

(٢) ومن يتأمل في كلمة «الجهاد» ومشتقاتها بالعربية فإنه يدرك أنها تدل على المقاومة لشيئ موجود مسبقا، وليس على المبادرة بهجوم. وانظر مثلا ابن القيم ص ج ٣: ٥-٩.

في سبيل الله» الذي يهدف إلى دفع الاعتداء ورفع الظلم عن المسالمين. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.(١) ويقول تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**».(٢) ولهذا لم يكن غريبا أن يجاهد المسلمون دفاعا عن غير المسلمين من رعاياهم (أهل الذمة) أي الأقلية غير المسلمة.(٣)

وبعبارة أخرى، فإن «الجهاد» في الإسلام ليس للعدوان ولكن للدفاع المشروع الذي تقره جميع القوانين الوضعية في الدول الديمقراطية وغيرها، والتي بموجبها حرصت جميع الدول على تكوين الجيوش القوية، وتطوير الأسلحة المدمرة.

وبملاحظة ما يجري في الواقع نجد أن من يستخدمون الإرهاب والإرعاب بمعناهما الواسع الذي قد يؤيد الحق ويدفع الظلم، أو يؤيد الباطل ويسند العدوان ثلاث فئات رئيسة، هي:

١ – من يستخدمهما بدون ضوابط للعدوان سواء أكان يؤمن بالحياة الأبدية أم لا يؤمن بها. فهو يخالف الفطرة البشرية، ويخالف الأنظمة البشرية، ويخالف التعاليم الربانية بما في ذلك تعاليم الإسلام.

٢ – من يستخدمهما –قدر الإمكان بضوابط فطرية– للدفاع عن

(١) سورة النساء: ٧٥.

(٢) صحيح مسلم: البر والصلة.

(٣) بن قدامة المقدسي؛ بن تيمية الحراني. الشيرازي؛ الحنفي.

النفس أو لدفع الظلم عن الأبرياء من الضعفاء، ولا يؤمن بالحياة في الآخرة، ولكن يفعل ذلك بدافع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

٣ – من يستخدمهما – قدر الإمكان بضوابط فطرية وشرعية – للدفاع عن النفس أو لدفع الظلم عن الأبرياء من الضعفاء، وهو مؤمن بأن له مكافأة عظيمة في الحياة الأبدية، فهو مدفوع بالفطرة ومدفوع بالمكافأة العظيمة في الحياة الأبدية فيحرص عليها.

ولهذا فإن هذا الأخير أكثر جرأة واستعدادا للتضحية بنفسه، وذلك لأن الحياة الدنيوية بالنسبة له ليست سوى وسيلة، وليست هدفا في ذاتها. ولعل هذا هو السبب في العمليات الجهادية الاستشهادية التي يقوم بها البعض دفاعا عن مقدساتهم أو أراضيهم، أو عن المظلومين منهم.

وعموما فإن نظرة الإسلام إلى العمليات الانتحارية تختلف باختلاف الفقهاء، وتنقسم آراءهم بين رأيين رئيسين:

١. يجيزها بعضهم ويحث عليها ما دامت للدفاع عن الحق وليست للاعتداء على الآخرين بغير حق. والقوانين البشرية في جميع الأنظمة السياسية تحث الجندي على الاستبسال في الحرب المشروعة في نظرها، وإن أدى ذلك إلى التضحية بحياته.

٢. يحرمها البعض باعتبارها نوعا من قتل الإنسان نفسه بيده. ويعتبر الاستبسال شيئا مختلفا لأن احتمال الحياة فيه أكبر، وليس الموت جزءا من نية المستبسل في الغالب.

وعلى وجه العموم فإن الإسلام يحذر من استخدامها ضد الأبرياء

الذين لا يجيز الإسلام قتلهم حتى في حالة الحرب، مثل كبار السن والنساء والأطفال والمسالمين، إلا في حالة مشاركتهم في الإرعاب أو الإرهاب العدواني.

كيف نفرق بين الإرعاب العدواني والدفاعي؟

لقد اتضح معنا أن الإرهاب والإرعاب قد يستعملهما المعتدِي (الظالم) والمعتدى عليه (المظلوم). والسؤال كيف نُميِّز بين الظالم والمظلوم منهما، وبين من يستخدمهما للعدوان وإيقاع الظلم بالآخرين ومن يستخدمهما لدفع الظلم عن النفس أو للدفاع عن المظلومين؟ الجواب هو:

إن المعيار الجوهري بين الإرهاب العدواني والإرهاب الضروري هو:

من الذي بدأ باستخدام الإرهاب أو الإرعاب ضد الآخر؟ فالبادئ هو الذي يمارس الإرعاب العدواني، والمدافع هو الذي يستخدم الإرعاب الدفاعي.

ومن يساعد الظالم بالتأييد المادي أو المعنوي فهو أيضا في حكم من يمارس الإرعاب العدواني، ومن يساعد المظلوم فهو أيضا في حكم من يمارس الإرعاب الدفاعي.

وصحيح أنه ليس من السهولة تحديد البادئ في جميع الحالات، ولكن الأمر واضح جدا في كثير من الحالات، وذلك على الرغم من مكابرة الطرف الظالم الذي قد يكون أكثر قوة أو له سند أقوى من سند المظلوم.

وأمـا في حالة تعذر معرفـة البادئ، فيمكن التعـرف عليه بمعيار آخر، وهـو أن نحاول الإصلاح بينهما. ومن يرفض قرار المحكمين المنصفين يعتـبر هو الظالم وإن كان مسـلما، إذ يقـول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾.[١]

والإرهـاب والإرعـاب العدواني قد يأخذان لونـا آخر وهو أن نعاقب إنسانا بدون ثبوت التهمة، أو أن نعاقب مجموعة من الناس أو شعبا بتهمة موجهة ضد فئة صغيرة. والإسـلام لا يجيـز ذلك بتاتا. فالعقوبة ينبغي أن لا تتعـدى الحـدود المشـروعة، أو الحدود المقبولـة بالمنطق بعد ثبوت التهمـة. وينبغـي أن تكـون طبيعة العقوبة ثابتـة، لا تتغير بتغيـر الباغي أو الظالم. فلا تكون قاسـية إذا كان الظالم ضعيفـا أو ليس صديقا، وليِّنة إذا كان الظالـم قويـا أو صديقا أو نرجو منه مصلحـة. فالإنصاف يحتم ثبات هـذه الحـدود. فالله سـبحانه وتعالى يأمرنا بالقسـط في جميـع الأحوال. يقـول تعالـى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾.[٢]

وعلـى الرغـم من هـذه التعاليم الواضحـة فإن بعض المنتسـبين إلى

---

(١) سورة الحجرات: ٩.

(٢) سورة المائدة: ٨.

الإسلام قد يخرجون عن هذه التعاليم ويستخدمون الإرهاب أو الإرعاب العدواني. وهذا طبيعي لأن جميع الدول تربي مواطنيها على السلوك الصحيح ومع هذا لديها سجون تمتلئ بالمجرمين. فهل نقول إن الشعوب كلها مجرمة أو أنها تربي أبناءها على الإجرام؟ وورد في إحصائية أمريكية أن هناك ١٧٥ حادثة «إرهاب» عدواني في الولايات المتحدة الأمريكية بين عامي ١٩٨٢-١٩٩٦. وقام بمعظمها مسيحيون، ثم يهود. فهل نقول بأن جميع المسيحيين «إرهابيون» عدوانيون؟ طبعا. لا. فليس من العدالة تعميم الأعمال السلبية لمجموعة صغيرة على الجميع، أو حتى على الأغلبية.

وإذا قامت بعض حكومات الدول الديمقراطية التي تنادي بالعدالة بمساندة دولة قامت بدافع التطرف الديني الخالص فطردت السكان الأصليين من أراضيهم ومنازلهم، هل يمكن القول بأن النظم الديمقراطية تشجع الإرهاب والإرعاب العدواني؟ وإذا قامت بعض الدول الديمقراطية التي تدعي محاربة الإرهاب بشن حرب ضد بعض الدول الفقيرة، وفي الوقت نفسه مستمرة في مساندة الدولة القائمة على الإرهاب العدواني، هل يمكن التعميم بأن الديمقراطية نظام منافق؟

كيف يعالج الإسلام الإرهاب العدواني؟

إن الإسلام يعالج الإرهاب أو الإرعاب العدواني بثلاث طرق رئيسة:

أولا - التربية الصالحة منذ الصغر والتنشئة على تحريم الظلم والعدوان ومدافعته، والدعوة إلى العدل والإنصاف ومساندته.

ثانيا – إزالة الأسباب التي تؤدي إلى الإرهاب أو الإرعاب العدواني. ويتم ذلك بحماية الحقوق، والحكم بالعدل، والتعامل بالإنصاف، والتعاون على البر والتقوى، وتوفير وسائل العيش العادلة. وليس عجبا أن يوقف الخليفة الثاني في الإسلام، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تنفيذ حد قطع يد السارق في عام المجاعة، وأن يعفي عبيدا سرقوا ناقة وذبحوها ليسدوا جوعهم. بل، عنّف سيدهم لأنه كان يجوِّعهم، ودفع قيمة الناقة من بيت مال المسلمين، أي الميزانية العامة.[١]

فقبل إصدار الحكم على من يقوم بعمل إرهابي أو إرعابي لابد من التعرف على أسبابه وإزالتها، وذلك بدلا من الاقتصار على إدانته. وقد نلوم العمليات العشوائية اليائسة للمظلومين التي قد يذهب ضحيتها بعض الأبرياء، ونتجاهل الإرهاب العدواني الذي يواجهونه ويذهب ضحيته آلاف الأبرياء.

وقد تلوم بعض الفئات أو الدول الآخرين للإرهاب الذي ينزل بها، وتتجاهل أسباب ذلك. فقد يكون ما ينزل بها هي ردة فعل طبيعية للإرهاب الذي تمارسه هي بتنشئة أجيالها على حقد الآخرين أو استغلالهم أو بمساندتها المستمرة للعدوان. وقد تبحث هذه الدول عن الحل في مزيد من الإرهاب وتغذيته بمزيد من الوقود وتغفل أو تتجاهل الحل الذي في يدها، وهو إزالة الأسباب التي هي مصدرها.

وقد يتسرع بعض حكام الدول في اتخاذ قرارات مبنية على معلومات

---

(١) مسند الشافعي ج١: ٢٢٤.

مغلوطة تقوم بتوفيرها مراكز القوى فيها (مثلا بعض القيادات في الاستخبارات العامة، أو في وزارة الدفاع أو عملاء لدول أجنبية). والأولى أن يبذل هؤلاء القادة جهدا أكبر في التحري عن الحقيقة، مثلا بالتعرف على ما تقوله المصادر المحايدة أو القاعدة العريضة من المصادر، بدلا من الاقتصار على مصادر محدودة، قد تكون مضللة بقصد أو بغير قصد. فبعض القوى المعادية تتخذ وسائل مختلفة من الضغط للحصول على قرارات محددة أو إجراءات. ومن هذه الوسائل الدنيئة المنافية للأخلاق تزويد صناع القرار بمعلومات خاطئة، والإغراء بالمال، وتوريط المسؤولين في مواقف مخزية أو حرجة عن طريق بعض أنواع النوادي الاجتماعية ثم تهديد المسؤول بواسطتها، وارتكاب جرائم تنسبها إلى أعدائها. وهذا لا يعني استبعاد تعمد بعض صناع القرار في تأليف أكاذيب وتهم ضد الآخرين لتحقيق مصالحهم الشخصية.

وهنا يأتي دور العقلاء في الفئة المحددة ومن الشعب في تنوير القيادة وفي تنوير الشعب الذي قد ينخدع بالمؤامرة المبيتة والكيد المتقن، أو بالمبررات السطحية التي قد يستخدمها هؤلاء الحكام لإقناع الشعب بالقرارات المتناقضة وغير المنطقية.

ثالثا - فرض عقوبات رادعة، ولكن بعد الإدانة بأدلة دامغة وإجراءات مشددة تسمح للقاضي رفض الاعترافات الشخصية. فالعقوبات التي تطبق على الأبرياء بسبب التهاون في التأكد، أو العقوبات الانتقامية التي تتجاوز الحدود المشروعة تؤدي غالبا إلى مزيد من الإرهاب العشوائي الانتقامي.

هل إنشاء مدارس القرآن يزرع الحقد والتطرف؟

إن القرآن الكريم كما اتضح من الاقتباسات السابقة دعوة للسلام العالمي، وعلى مستوى الحياة المؤقتة والأبدية، ودعوة لأداء حقوق الآخرين على الرغم من الاختلاف في الدين.

وفيه حث لمن يقرؤه بفهم كاف على التمسك بالمبادئ الأخلاقية العالية وحسن التعامل مع الناس جميعا، بل والإحسان إليهم، والحرص على سعادتهم في الدنيا والآخرة. يقول تعالى في القرآن الكريم: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون.[1]

وفي القرآن الكريم حث على أداء حق الرحم وحق الوالدين وإن كانا غير مسلمين. فالله تعالى يقول: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وكذلك يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم

---

(١) سورة الممتحنة: ٨-٩.

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.(١)

وفي القرآن الكريم ما يؤكد حرص الإسلام على الحفاظ على كرامة الإنسان، وما يحث على العزّة التي لا غرور فيها، ويثني على القوة التي لا اعتداء فيها على الآخرين.

وفي القرآن الكريم تاريخ كفاح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وصفات من عادوه من أجل دعوته وكيف صبر على الأذى والاعتداء عليه وعلى أتباعه حوالي ثلاثة عشر عاما. ثم أذن الله له بالدفاع عن النفس ومعاملة المعتدين بالمثل، وحث على حسن الاستعداد لذلك.

وقد جرت في العالم حروب كثيرة بين مختلف العصبيات والديانات والوحدات السياسية. واستخدمت فيها الأطراف المتحاربة شتى أنواع الإرهاب، منها: العنف والتدمير والقهر النفسي والروحي والذهني... فهل جميع هؤلاء إرهابيون؟ أو أن العبرة بالدوافع إذا كانت عدوانية، أو دفاعية؟

وجميع الدول لديها مدارس وأكاديميات عسكرية وأمنية وجيوش، وتحرص على تدريب جنودها على الاستعمال الماهر لهذه الآلات والوسائل المدمرة. والدول المتطورة ماديا وتقنية في العالم هي الأكثر تقدما في تطوير الأسلحة المدمرة بالجملة وهي التي تبيعها للشعوب الأخرى. وتعتز هذه الدول وتفاخر بأن لديها أقوى الجيوش في العالم وأنها تمتلك مراكز أبحاث متقدمة تقوم بتطوير أكثر الأسلحة تدميرا. فهل

---

(١) سورة العنكبوت: ٨؛ لقمان: ١٤- ١٥؛ وانظر صيني، حقيقة العلاقة ص ٥٥-٦٨.

نقول بضرورة إلغاء المدارس والمؤسسات الحربية كلها؟

وهل جميع هذه الدول تشجع الإرهاب أو الإرعاب العدواني؟ وهل جميع الدول التي تنمي قواتها العسكرية بحرص شديد هي دول تشجع الإرهاب والإرعاب العدواني؟

بالطبع. لا. فالإنسان العاقل لا بد أن يستعد للدفاع عن نفسه إذا واجه ظلما أو اعتداء. والقوانين كلها سواء منها الإلهية أو الوضعية تمنح الإنسان حق الدفاع عن النفس والمال والعرض والدين.

وإذا كان تدريس القرآن الكريم، يزرع الحقد والتطرف لأنه يتضمن جزءا من قصص الصراع بين المسلمين الأوائل ومن عادوهم فكذلك تدريس تاريخ الأمم جميعها. فهل نمنع جميع الشعوب من تدريس تاريخها، مع ما فيها من قصص الحروب الطاحنة الداخلية وبينها وبين الشعوب الأخرى، وذلك بحجة أن هذه الدروس تغذي روح العصبية والتطرف؟ بل هناك أفلام وأشرطة فديو عن أحداث الحروب العالمية، وعن حروب خيالية بين الشعوب المختلفة وبين الفئات المختلفة من المواطنين في البلد الواحد. فهل ينبغي منع هذه الأفلام الوثائقية لأنها تغذي روح التعصب والتطرف بين الدول أو الشعوب التي اشتركت فيها، مع أنها تعبر عن أحداث حقيقية جرت في الواقع؟ أو هل الأفضل تشويه الواقع وبناء العلاقات الدولية على أسس من الخيال والأحلام الجميلة؟

وهناك نصوص في الكتب المقدسة عند أصحاب الديانات الأخرى، لو تم تجريدها من سياقاتها، لأمكن اعتبارها نصوصا تشجع

على «الإرهاب» العدواني. ومثال ذلك في العهد القديم «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتملكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم.»[١] وفيه أيضا «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال. وكل امرأة عرفت رجلا مضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات.»[٢]، ومثاله من العهد الجديد: «أما أعدائي أؤلئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي.»[٣]

فهل نقول بأن هذه الكتب المقدسة تشجع «الإرهاب» والعنف العدواني؟ وهل نلغي هذه النصوص من تلك الكتب؟

بالطبع، لا. فلابد من التأكد من درجة مصداقية نسبة هذه النصوص إلى رب العالمين، ثم فهمها في ضوء درجة صراحتها وسياقاتها المناسبة.



(١) الكتاب المقدس: العهد القديم، التثنية، ٧: ١-٢؛ سفر التثنية، ٢٠: ١٠-١٨.
(٢) الكتاب المقدس: العهد القديم، الأعداد، ٣١: ١٧-١٨.
(٣) الكتاب المقدس: العهد الجديد، لوقا، ١٩: ٢٦-٢٧.

الفصل السابع

التطرف و تطبيق الشريعة الإسلامية

إن الإنسان العاقل يدرك أن مدلول كلمة «التطرف» أمر نسبي. فما قد يكون تطرفا بالنسبة لشخص قد يكون اعتدالا بالنسبة لشخص آخر. فما هو معيار التطرف؟ وحتى في الدولة الواحدة قد يختلف مفهوم التطرف من زمن إلى زمن آخر. فقد جاءت فترة عارضت فيها المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية عقوبة الإعدام للقاتل المتعمد باعتبارها عقوبة متطرفة. ثم عادت فأجازت التعديلات التي أجرتها كثير من الولايات للتوسع في تطبيق عقوبة الإعدام.[١] فهل كانت عقوبة الإعدام متطرفة ثم أصبحت غير متطرفة؟

وعموما فإن المسلم، ما دام يعلم بالأدلة القوية أن هذه التشريعات ربانية، فهو يعتقد أنها أكثر صلاحية من اجتهادات البشر جميعا، لأن الله هو خالق البشر وهو أعلم بما يصلح لهم.

وقد أثبتت بعض التجارب البشرية في عصر النهضة الغربية أن كثيرا من التشريعات الإسلامية أكثر صلاحا ومراعاة لحقوق الإنسان وأقدر على تحقيق التوازن الأمثل بين الحقوق المتعددة والمتعارضة، إذا عملنا بها. ولهذا لم تتوان عن الاستفادة منها.

وما دام الشعب أو أغلبيته في دولة مسلمة قد اختار الإسلام دينا، أي مجموعة الأنظمة والقوانين الربانية لتحديد العلاقات بين أفراد الشعب

(١) US Department of Justice.

نفسه، أو بينهم وبين الشعوب الأخرى فعلى حكومة هذا الشعب أن تطبق هذه الشريعة، في حياة أفرادها الخاصة والعامة. فحق اختيار التشريعات المناسبة حق مشروع لكل شعب مستقل، عضو في هيئة الأمم المتحدة أو ليس عضوا. ويلاحظ أن التشريعات الإسلامية وحدة واحدة، كما قلنا سابقا، ليست قابلة للتجزئة وللانتقاء.

وعلى الرغم من حزم الإسلام مع بعض الجرائم، حيث حدد لها عقوبات واضحة لا يمكن التهاون فيها، إلا أنه اشترط أن تكون الإدانة ثابتة، لا شك فيها حسب إجراءات مشددة. ولم يأت الإسلام بجديد فيها. فهذه العقوبات التي يصمها البعض بأنها متطرفة هي جزء من التشريعات الثابتة في الكتب المقدسة، مثل الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، وإن كانت بعض النظم اللادينية تعارض تطبيقها أحيانا.

ولا يشك عاقل بأن أي نظام حكم صالح لا يمكن أن يخلوا من أنظمة للعقوبة، تطبق على من يتجرأ على انتهاك الحقوق العامة أو الخاصة. وعموما يلاحظ أن «العقوبات» في التشريع الإسلامي ليست عقوبات فعلية (جزاء أو انتقام) بل هي أدوات للتخويف والتحذير أو للتربية والتهذيب، أو للتعويض والتطهير، وذلك حماية للفرد وللمجتمع من السلوك المنحرف عن الفطرة الذي يضر الفرد والمجتمع.

هل تطبيقات بعض الحكومات الإسلامية متطرفة؟

إن الحكومة الإسلامية التي تطبق التشريعات الإسلامية بما في ذلك التشريعات التي يعتبرها البعض «متطرفة» مثلها مثل أي حكومة أخرى

تلتزم بتطبيق التشريعات التي ارتضاها شعبها أو أغلبيتهم. وعندما تختار غالبية الشعب في أي دولة الإسلام عقيدة وشريعة فإن القول بتطرفها أو باعتدالها:

١ - ليس بحسب تصور أي إنسان، سواء أكان يعرف شيئا عن الإسلام أم لا يعرف عنه شيئا، وسواء أكان هذا الإنسان - بمعيار الأخلاق الإنسانية العامة- محافظا أم متحررا كل التحرر.

٢ - ليس في ضوء تطبيقات «المسلمين» اليوم في مختلف بقاع الأرض.

فالحكم بتطرفه أو باعتداله يتم في ضوء نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية الموثقة، وما يستنبطه منهما علماء المسلمين العارفون بكتاب الله وسنة رسوله. وما يجري تطبيقه في جميع الدول الإسلامية اليوم يتسم بالتهاون. ومن المؤكد أن الحكومة الإسلامية الواعية ستراعي واقع الحياة في الظروف الراهنة التي تستحيل فيها العزلة وتكثر فيها المغريات التي تؤدي بالمسلم إلى التهاون في تطبيق التعاليم الربانية في جميع أموره أو في جميع أحواله. ويتفاوت تطبيق الحكومات الإسلامية للشريعة الإلهية بحسب درجة التزامها بالإسلام أو درجة التزام الغالبية من شعبها. بيد أنه من المؤكد أنه لا يجوز بحال الخروج على التشريعات الربانية أو تجاهلها ما دامت قطعية الثبوت والدلالة أو قريبا من ذلك وما دامت شروط التطبيق متوفرة.

لماذا يقر الإسلام عقوبة الإعدام؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.[١] وعن عظم جرم القتل المتعمد بدون مبرر شرعي يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾.[٢] فإذا طبقت الدولة الإسلامية عقوبة الإعدام فإنما هي تقوم بإحدى واجباتها. فليس للحكومة الإسلامية أو أي حكومة أن تعطل التشريعات التي اختارها الشعب أو أغلبيته.

وكما هو ملاحظ من الآية السابقة، فإن الإسلام حفاظا على حق صاحب الحق يجعل حق العفو محصورا في يد صاحب الحق ويحثه على العفو.[٣] وكثيرا ما يحصل هذا العفو في الواقع قبيل تنفيذ الحكم، بعد أن يكون القاتل قد تلقى درسا بليغا.

وهذا هو العدل حتى في النظام الديمقراطي أو الشعبي، إذ لا يجوز للحكومة أن تطبق غير التشريعات التي اختارتها الأغلبية أو السكان جميعا. وبالتأكيد لا تملك الحكومة صلاحية إرغام صاحب المال

---

(١) سورة البقرة: ١٧٨.

(٢) سورة المائدة: ٣٢.

(٣) سورة البقرة: ١٧٨.

المسروق على التنازل عن ماله بعد إلقاء القبض على السارق ومعه المال المسروق.

ولعل مجلس الأمن الدولي كان ينطلق من ضرورة العقوبة الشديدة التي تليق بنوع الجريمة عندما أجاز معاقبة دولة بأكملها **بتهمة** قيام أفراد منها أو لمساندتهم بعض **المتهمين** في حادثة ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ ميلادية. وهي تهمة تخضع للنقاش لتوفر أدلة قاطعة بأنها مؤامرة خفيت على كثير من البشر،وكشف الخبراء حقيقتها. ولو قورن قرار مجلس الأمن المذكور بعقوبة الإعدام التي تقتصر على المذنب، بعد ثبوت التهمة بالأدلة الدامغة، فإن عقوبة الإعدام أكثر عدالة. فقرار مجلس الأمن كان مبنيا على تهمة شخص واحد أو فئة صغيرة، ولكن ذهب ضحيتها آلاف الأطفال والنساء وكبار السن. فهم إما قُتلوا أو أصيبوا بجراح أو فقدوا ملاجئهم في عز الشتاء.

فعقوبة الإعدام هي العلاج الناجع لجريمة الاعتداء على الأبرياء بالقتل المتعمد. وخيار قتل المجرم الواحد بعد المحاكمة العادلة والتحقق والتثبت، ينفذه المجتمع في ضوء ضوابط وشروط مشددة، هو أفضل من خيار وقوع أبرياء كثيرين ضحايا القتل بطريقة مزاجية، يقررها مجرم أو عصابة من المجرمين.

ويؤكد الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة بقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.[١] فالقصاص -في الواقع-

---

(١) سورة البقرة: ١٧٩.

يمنح الحياة لكثير من الأبرياء الذين قد يتجرأ المجرمون المعتدون على قتلهم ظلما وعدوانا. وهو أيضا يمنح الحياة لكثير ممن لا يتورعون عن التعبير عن غضبهم بقتل الآخرين. فالقصاص يجعلهم يفكرون مرات قبل ارتكاب جريمتهم التي تنتهي عادة بإعدامهم.

وبهذه العقوبة فإن الإسلام يحمي الأبرياء من الرعب والخوف من التعرض للقتل غير المشروع. وهو تماما ما تفعله معظم الدول – حتى العلمانية الديمقراطية– على المستوى المحلي، بل وعلى الصعيد الدولي.

بيد أن الإسلام لا يبيح قتل المسالمين، ولا ترويع الآمنين بدون حق. كما أن الإسلام يرى أن مساعدة المعتدين لا يقل جرما عن الاعتداء نفسه. فالإسلام يحث على التعاون في الحفاظ على تحقيق السلام العالمي. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.[1]

لماذا يقر الإسلام عقوبة قطع يد السارق؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[2] فإذا طبقت الدولة الإسلامية عقوبة قطع يد السارق فإنما هي تقوم بإحدى واجباتها. فليس للحكومة الإسلامية أو أي حكومة أن تعطل التشريعات التي اختارها الشعب أو أغلبيته.

---

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) سورة المائدة: ٣٨.

إن الإسلام يحمي حق الإنسان أو المخلوق المكلف في العناصر الأساسية التي تكفل له السعادة وتجعله يعيش في أمن وسلام: النفس، والمال والعرض، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم النحر: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ. قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا.**»[1]

ولهذا فإن الاعتداء على هذه الأشياء عمدا وبسابق إصرار يستحق عقوبة رادعة، تردع من يفكر في ارتكابها. فالسارق قد يرتكب أثناء عملية السطو أيضا جريمة القتل تيسيرا لعملية السرقة. والسرقة أيضا تثير الرعب في المجتمع، وقد تؤدي إلى حصول القتل دفاعا عن المال والنفس.

لماذا يقر الإسلام عقوبة جلد الزناة؟

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[2] فإذا طبقت الدولة الإسلامية عقوبة جلد الزناة فإنما هي تقوم بإحدى واجباتها. فليس لأي حكومة أن تعطل التشريعات التي اختارها الشعب أو أغلبيته.

ولو قمنا بدراسة لنتائج العلاقات الجنسية غير المنضبطة بضوابط،

---

(١) صحيح البخاري: الحج.

(٢) سورة النور: ٢.

لوجدناها تسهم بقدر كبير في كثير من الأمراض المعدية وفي كثير من المشكلات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع، مثل: التشرد، والانخراط في سلك الإجرام، وفي ارتكاب جريمة قتل الجنين، وفي فساد العلاقة بين الأزواج وتفكك الأسر... وغير ذلك.

ولهذا فإن الإسلام يقيد العلاقة الجنسية بضوابط شرعية تكفل تلبية الغريزة الجنسية، ولكن مع تحمل تبعاتها ومسؤولياتها. فلا يختل التوازن في المجتمع، وتُحفظ الحقوق، ولاسيما حقوق الأبرياء من الأطفال الذين لا حيلة لهم. فيجدون من هم ملزمون برعايتهم، دون إلقاء العبء كله على الأم، في الوقت الذي استمتع فيه الطرفان الرجل والمرأة. فالملاحظ في الواقع أن الرجل يمضي وكأن شيئا لم يحدث، ويتهرب من المسؤولية، ثم تقع المسؤولية كلها على المرأة وحدها. فالنداءات والتوصيات والتشريعات التي تنادي بإباحة العلاقة الجنسية الحرة إنما تنادي بشرعية استغلال الرجل للمرأة أسوأ استغلال.

وحتى في حالة استخدام موانع الحمل والإجهاض فإن المشكلة تظهر بصورة أخرى. وهي حرمان الأنثى من إشباع غريزة الأمومة عندها، وعرقلة سير الحياة البشرية على الأرض واختلال توازنها. ومن هذا الاختلال ارتفاع نسبة كبار السن في الأمة تلقائيا. وهذا يؤدي إلى نتائج اجتماعية واقتصادية غير محمودة بالنسبة لأي أمة.

كما أن العلاقة غير المشروعة قد تؤدي إلى وقوع جريمة القتل بسبب الغيرة الفطرية.

والإسـلام إنما يضع الضوابط للعلاقة الجنسية حرصا منه على حفظ حقوق المرأة والأطفـال الأبرياء الذين لهم حق الحياة الكريمة، وحرصا على عدم هروب الرجل عديم الإحساس من المسؤولية المشتركة.

ما الحقيقة في عقوبة الرجم للثيب الزاني؟

قـد يلحـق بموضوع التسـاؤلات التي تثار حـول عقوبـة الزنا الرجم للثيب الزاني والزانية. وهي مسألة فيها اختلاف.

فهنـاك من يقول ببقاء حكم رجمهمـا لثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الحالات هي رجم ماعز الأسلمي [١] ورجم الغامدية[٢] ورجم الجهنية [٣] ورجم شـراحة [٤] وكذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسـلم «**وَالثَّيِّـبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَـةٍ وَالرَّجْمُ**»[٥] ولقـول عمر ابن الخطاب بعدم نسخ آية الرجم حكما وإن تم نسخها قراءة من القرآن الكريم.[٦]

وهناك من يقول بأن الرجـم حكم للردع والتخويف أكثر منه للتطبيق في بداية الإسلام عندما كان الزنا شائعا، ثم تم نسخه، وذلك للأدلة التالية:

١ . صعوبـة إثبات جريمة الزنا –في الإسـلام– بواسـطة الشـهود، بل والتهديـد بالجلـد ثمانين جلدة لمـن يحاول إثباتها بدون توفير الشـروط

(١) ابن ماجة: الحدود؛ أحمد، باقي مسند الأنصار، وباقي مسند المكيين.

(٢) أحمد: باقي الأنصار.

(٣) أحمد: البصريين.

(٤) أحمد: العشرة المبشرين بالجنة.

(٥) صحيح مسلم: الحدود.

(٦) صحيح البخاري: الحدود.

المحددة.[١] يضاف إلى ذلك منح الزوجة فرصة تبرئة نفسها أمام الناس بمجرد القسم.[٢]

٢. جميع الحالات التي تم تطبيق الحد فيها وبدون استثناء كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحاول فيها جاهدا دفع تطبيقه. فمثلا بالنسبة لماعز الذي جاء معترفا بالزنا انصرف عنه أربع مرات أو أيام، وسأل قومه عن عقله، وحاول أن يثنيه عن الاعتراف بأسئلة محرجة، وقال لأصحابه لو تركتموه عندما حاول الهرب أثناء عملية الرجم. وبالنسبة للمرأة الغامدية الحامل حاول أن يدرأ عنها الحد مرارا حتى طلب منها أن تعود بعد استكمال رضاعة صغيرها، أي بعد عامين.[٣]

٣. جريمة الزنا لا يرتكبها شخص واحد ولكن إثنان، ومع هذا فإنه لم يثبت في ظل الروايات المعنية أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لاحق الطرف الآخر بأي شكل من الأشكال إلا في حالة واحدة. وهي الحالة التي أخذ فيها الزوج تعويضا ماليا من الزاني بزوجته وكان بكرا، وعُرضت قضية التعويض عليه صلى الله عليه وسلم.[٤]

٤. بقاء آية الحبس مثلا قراءة ونسخها حكما [٥] يرجح أن نسخ الرجم قراءة دليل أيضا على نسخها حكما.

---

(١) سورة النور: ٤.

(٢) سورة النور: ٦-٩.

(٣) أحمد: باقي الأنصار.

(٤) صحيح البخاري: الصلح.

(٥) سورة النساء: ١٥.

٥. هناك نصوص إسلامية شبيهة تهدف إلى الزجر والتحذير الشديد من بعض المخالفات مثل لعن: آكل الربا، والواشمة والمستوشمة، وليس القصد منها الدعاء بطردهم من رحمة الله.[١]

وعموما من يتأمل العقوبات الإسلامية الخاصة بجريمة الزنا يجد أنها تعنى بالحق العام عناية كبيرة. فمن يمارس العملية الجنسية بطريقة شبه علنية، بحيث يستطيع أربعة شهداء وصفها بدقة لا يتعدى على الحقوق الخاصة للأقارب فحسب، ولكن يتعدى أيضا على الآداب العامة ويتحداها.

ولعل «عقوبة» زنا المحصن والمحصنة خير مثال ل«لعقوبة» كأداة زجر شديدة وتحذير. فقد وضع الإسلام قيودا مشددة لإثباتها من الخارج. أما إذا أصر من ارتكبها على الاعتراف وإثبات ذلك، ليطهر نفسه في الدنيا وليكسب الأجر العظيم في الآخرة، فهي لا تحرمه الفرصة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم تعليقا على الجهنية التي أصرت على الاعتراف بالزنا وطبق عليها الحكم: « **لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ. وَهَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ.** »[٢]

والعقوبات شديدة الزجر معروفة في النظم الديمقراطية. فمثلا تجعل بعض الولايات الأمريكية عقوبة من يرمي بالزبالة في قارعة الطرق السريعة خاصة، خمسمائة دولار، وإن كانت الزبالة مجرد علبة فارغة.

---

(١) مثلا: البخاري: البيوع. وانظر صيني، حقيقة ص ٢٤-٢٥.

(٢) الترمذي: الحدود.

هل يستحق القتل من يرتد عن الإسلام؟

كما سبق القول فإن القاعدة العامة هي أنه لا إكراه في الدين، ولكن عندما يختار الإنسان الإسلام فإنه يدخل مع الله ثم مع المسلمين في معاهدة لمدى الحياة الدنيوية. وبهذا برّر بعض العلماء قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من بدل دينه فاقتلوه**».(١) ويشبه ذلك قبول الإنسان الانتماء إلى دولة وقبول تبعاتها من التجنيد الإجباري ودفع الضرائب وقبول حكم الإعدام للمستحق في ظل قوانينها.

والمعاهدة أو العقد ملزم، ولا يمكن لأحد الأطراف أن ينقضه من عنده، حماية لحقوق جميع الأطراف المرتبطة بالمعاهدة أو العقد.

فحرية الدخول أو عدم الدخول في العقد شبه مطلقة، ولكن الخروج منه مقيد بحقوق الأطراف الأخرى. ومن يتأمل في الظروف التاريخية يجد أن هذا النص جاء في وقت كانت فيه الهوية السياسية ليست كما هي اليوم منضبطة بسجلات وغير ذلك، مما يمكن معها التمييز بدقة بين مواطني الدول المختلفة. وكانت الهوية الدينية هي الهوية المكتسبة البارزة التي يمكن التمييز بها بين فئات الناس الذين يعيشون في مدينة واحدة.(٢) وكان يسهل على جواسيس الجماعات المعادية للإسلام والمسلمين تقمص الشخصية الإسلامية والخروج منها بسهولة، فكان لابد من وضع حد لهذا.

والهوية المميزة لمجموعة محددة من الناس تستوجب حقوقا

---

(١) البخاري: الجهاد.

(٢) لقد عرف الإسلام في المدينة الدولة الدستورية متعددة القوميات والديانات، ولكنها ليست في صورتها الراهنة المحددة.

وتستوجب واجبات، ويمكن للإنسان إساءة استخدامها كما هو بالنسبة للمواطنة. والإسلام كأي نظام آخر لا يسمح لأحد بالعبث بالنظام أو بسوء استغلاله. ومثال سوء الاستغلال ما ورد في قوله تعالى ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.[١] فقد كان بعض اليهود يتظاهرون بالإسلام لإغواء المؤمنين ولبث الفتنة بينهم.

وقد يضاف إلى ذلك أن الإسلام هو النسخة الأحدث بل الأخيرة من الرسائل السماوية وانتقال اليهودي أو المسيحي إلى الإسلام تطور. وأما تحول المسلم إلي اليهودية أو المسيحية فهو نكوص إلى الوراء.

ومن زاوية أخرى، فإن فقهاء المسلمين اختلفوا في تطبيق هذا النص. فمال بعضهم إلى أن هذا النص للتهديد والوعيد تخويفا أكثر منه للتطبيق. واستدلوا بأدلة منها الاختلاف في حكم المرأة المرتدة مثلا،[٢] والاختلاف على مدة الاستتابة، رغم الاتفاق على ضرورتها. فقد قال البعض بأنها تمتد إلى نهاية العمر لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.[٣] وكذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بخواتيمها».[٤] ولقوله أيضا: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ**

---

(١) سورة آل عمران: ٧٢.

(٢) الترمذي: الحدود.

(٣) سورة البقرة: ٢١٧.

(٤) البخاري: الرقاق وانظر إسماعيل ص ٧١-٧٣.

الْعَبْـدِ مَا لَـمْ يُغَرْغِرْ.»(١) وجاء في الحديث الشـريف «**لَا يَحِلُّ قَتْلُ مُسْـلِمٍ إِلَّا فِـي إِحْدَى ثَـلَاثٍ: ...رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْـلَامِ فَيُحَارِبُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُـولَهُ فَيُقْتَلُ أَوْ يُصَلَّبُ أَوْ يُنْفَى مِنَ الْأَرْضِ**»، أي يشـترط هذا الحديث إضافة إلى الردة أن يحارب الله ورسـوله.(٢) وفـوق ذلك يحتج أصحاب هذا الرأي بأن الإسلام لم يأت ليعجل بموت المخلوقات المكلفة، لكي يحرمهم فرصة الإسلام أو التوبة في مرحلة من العمر متأخرة.

ويسـتدلون بقول النبي صلى الله عليه وسـلم «**لله أرحم بعباده من هذه بولدهـا**»، وذلك تعليقا على قول الصحابة بأن الأم لن تطرح ابنها في النار إذا اسـتطاعت أن لا تطرحه.(٣) ويستدلون بحرص نبي الرحمة على توفير فرصـة الإسـلام للأجيـال التي لـم تولد بعد لمشـركي قريـش. فقد ثبت أنـه أجـاب « **بَلْ أَرْجُـو أَنْ يُخْرِجَ الله مـن أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُـدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئا**»، وذلك عندما سأله ملك الجبال: إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ ؟(٤)

❐❐❐❐

(١) أحمد: سند المكثرين من الصحابة.

(٢) النسائي: تحريم الدم.

(٣) البخاري:٥٩٩٩، مسلم: ٧١٥٤.

(٤) البخاري، ج٣: ١١٨٠.

الخلاصة

يعني الإسلام، بمعناه العام، التسليم لله الواحد في جميع ما علّمه آدم وأنزله على رسله، ثم دعا إليه محمد، خاتم الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام جميعا. ومن الأخطاء الشائعة نقد مصداقية التشريعات الربانية ومحاكمتها، بالاستناد إلى قدراتنا العقلية ذات الوسائل المحدودة في الإدراك والاستيعاب. والأصل الاعتماد على المنهج النقلي (الاعتماد على مصداقية الرواة) في تحديد مصداقية نصوص القرآن الكريم والسنة، والاعتماد على تفسير النصوص بعضها لبعض، إضافة إلى العقل. ومن خلال التعليقات على الأسئلة المطروحة ظهر واضحا ما يلي:

أولاً: الإسلام وحدة كاملة مترابطة الأجزاء، تشمل المعتقدات والعبادات والقواعد اللازمة لتعامل المخلوقات مع خالقهم، وللتعامل الأمثل بين المخلوقات. والحياة الدنيا ليست سوى مزرعة للحياة في الآخرة. وما نزرعه في الدنيا نحصد منه شيئا يسيرا في الدنيا، فالعبرة بما نحصده في الحياة الآخرة الأبدية.

ثانياً: علم الله، منذ الأزل، ما سيجري في العالم وأمر بتسجيله بإتقان. فعِلمُ الله مطلق، لا يحده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة. وهذا هو القدر، ولا يعني أن الله حكم على العباد بما يفعلونه.

والجهاد في الإسلام هو ردة فعل لاعتداء الآخرين على الإسلام أو المسلمين من أجل دينهم. ولا يعني قتال الآخرين، إذا رفضوا الإسلام لأنفسهم.

ثالثًا: يدعو الإسـلام إلى تعزيز الفطرة البشرية التي تميل إلى التعاون بين الناس، فيحث عليه لتحقيق السـعادة في الحياة الدنيا والآخرة أو على الأقل في الدنيا للجميع. ولهذا يوجب الإسلام نشره، ويحث على التعاون لتحقيق المصالح المشتركة ويسخر الحوار وغيره لتنميته.

رابعــًا: يراعي الإسـلام حقـوق مختلف الفئـات البشـرية: الأغلبية والأقلية داخل إطار الوحدة السياسية الواحدة، ولكن بنسب متفاوتة تليق بحجـم كل فئة. فيمنح الأغلبية حقوقا في الشـؤون العامة التي يتعذر فيها التعدد لا يمنحها للأقلية. وأما في الشؤون الفردية، مثل العبادات والحقوق المدنية فإن الإسلام يمنح الأقلية حقوقها المناسبة في ظل المبادئ العامة للدستور الذي تقره الأغلبية.

خامســًا: المرأة في الإسلام معادلة للرجل، أو مفضلة عليه في أمور أو أقل منه في أخرى، وذلك بحسـب نوع الحقوق التي تتسـق مع طبيعة كل من الذكر والأنثى ووظائفهما. ويكمل أحدهما الآخر، مثل النهار والليل بالنسبة لليوم؛ ولا يمكن الاستغناء عن أيهما.

سادسًا: هناك نوعان من الإرعاب أو الإرهابterrorism:

١) إرهاب وإرعاب عدواني، يحرمه الإسـلام تحريمـا باتا ويحدد له عقوبات رادعة. ٢) إرهاب وإرعاب وقائي ودفاعي، يضطر إليه المعتدى عليه أو المظلوم، ويجعله الإسلام ضروريا بقيود وبقدر الحاجة.

سـابعا: مدلـول كلمة التطرف نسـبي يتغير من مجتمـع إلى مجتمع، ومـن زمن إلى زمن في المجتمع الواحـد. ولهذا يخضع مدلوله الصحيح

للتشـريعات التـي تختارها الأغلبية. ولو تخلصنا من تحيزاتنا الشـخصية ثم تأملنا في التشـريعات الإسـلامية في ظل الواقع المعاش لاتضح لنا أنها طبيعية، بل متميزة، وليست غريبة كما تبدو لأول وهلة.

وهكـذا نلاحـظ أن تعاليـم الإسـلام الربانيـة أكثـر إتقانـا وصلاحـا للمخلوقـات المكلفة (الجـن والإنس) إذا تم تطبيقهـا بعناية كافية. فهي أكثر قدرة على الموازنة بين حقوق الفرد والمجتمع، وبين حقوق الأغلبية والأقلية، وبين متطلبات الحياة الدنيوية والأخروية.





قائمة المراجع العربية

١. القرآن الكريم.

٢. الكتاب المقدس،: كتب العهد القديم والعهد الجديد (دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٦٤.

٣. ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٣٩٩).

٤. أبن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار الفكر - بيروت - -).

٥. ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر ١٩٩٠).

٦. أبو يوسف، يعقوب ابن إبراهيم، **كتاب الخراج** (القاهرة:ــ).

٧. أسد، محمد منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة منصور محمد ماضي (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٥٧).

٨. إسماعيل، سعيد، كشف الغيوم عن القضاء والقدر (المدينة المنورة: المؤلف ١٤١٧).

٩. البستاني، بطرس، محيط المحيط (--------).

١٠. باحارث، عدنان حسن صالح، مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع ١٤١٠).

١١. بن حميد، صالح عبد الله، تلبيس مردود (مكة المكرمة: مكتبة المنارة ١٤١٢).

١٢ . الجادر، عادل حامد، أثر قوانين الانتداب البريطاني في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ١٩٧٦).

١٣ . الحراني، عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ١٤٠٤ (الرياض: مكتبة المعارف ١٤٠٤).

١٤ . حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت: --- ١٩٦٩).

١٥ . الحنفي، زين الدين ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ط٢ (بيروت: دار المعرفة ---)

١٦ . دار المشرق، المنجد في اللغة (بيروت: دار المشرق ١٩٩٦).

١٧ . الدواليبي، محمد معروف، حقوق الإنسان ودعوة الإسلام إلى العناية بها. (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ---).

١٨ . دوروين، كارل فان، ترجمة محمد مأمون نجا، التجربة الدستورية الكبرى في الولايات المتحدة (القاهرة: دار النهضة العربية ١٩٤٨).

١٩ . رابطة العالم الإسلامي، المجمع الفقهي، بيان مكة المكرمة (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٢/ ٢٠٠٢).

٢٠ . رابطة العالم الإسلامي، ندوات علمية في الرياض، والفاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي في جنيف، والمجلس الأروبي في ستراسبورغ حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان (مكة المكرمة:

رابطة العالم الإسلامي ـــ).
٢١. الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (هيرندن: فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ
٢٢. زقزوق، محمود حمدي، مشرف ومقدم، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وزارة الأوقاف، جمهورية مصر العربية ١٤٢٣).
٢٣. الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف أبو إسحاق، المهذب في فقه الإمام الشافعي، بيروت: دار الفكر ---).
٢٤. الصاوي، صلاح، تهافت العالمانية في مناظرة نقابة المهندسين بالإسكندرية (القاهرة: الآفاق الدولية للإعلام ١٤١٣).
٢٥. صيني، سعيد إسماعيل، حقيقة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠).
٢٦. صيني، سعيد إسماعيل، الإسلام والحوار بين الحضارات بحث مقدم في ندوة «الحوار بين الحضارات من أجل التعايش المنعقد في دمشق بين الفترة بين ١٨-٢٠/ ٥/ ٢٠٠٢ م.
٢٧. صيني، سعيد إسماعيل، الإسلام والتنشئة السياسية والوقاية من العنف والتطرف، بحث مقدم للمؤتمر الثاني حول دور العلوم الاجتماعية والصحية في تنمية المجتمع المنعقد في الكويت بين ١٨- ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٣.
٢٨. صيني، الخطاب الإسلامي بين الرفض والتسليم، مقدم للمؤتمر

السنوي الثامن لرابطة العالم الإسلامي المنعقد في الفترة بين ٥-٧ ذي الحجة ١٤٢٨ للهجرة.

٢٩. صيني، سعيد إسماعيل، الإنسان والقضاء والقدر، في مجلة الحكمة العدد: ٣٣، جمادى الثاني ١٤٢٧هـ ص ٤٢٣-٤٥٦.

٣٠. صيني، سعيد إسماعيل، حرية التعبير والإلحاد والانحلال، مقدم لمؤتمر الإعلام المعاصر بين حرية التعبير والإساءة إلى الدين، المنعقد في صنعاء بين ١٢-١٤صفر ١٤٣٠ للهجرة.

٣١. صيني، سعيد إسماعيل، الأمن الفكري والأنظمة مقدم إلى المؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري: المفاهيم والتحديات المنعقد في الرياض بين ٢٣ـ ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٠ هـ.

٣٢. عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح، حقوق المرأة في الإسلام (مكة: رابطة العالم الإسلامي ـــــ).

٣٣. عرفة، محمد عبد الله بن سليمان، حقوق المرأة في الإسلام (القاهرة: مطبعة المدني ١٣٩٨).

٣٤. العقاد، عباس محمود، عبقرية عمر (القاهرة: دار الهلال ـــــ).

٣٥. العناني، حنان عبد الحميد، تربية الطفل في الإسلام (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع ١٤٢١).

٣٦. العوا، محمد سليم، في النظام السياسي للدعوة الإسلامية ط٧ (القاهرة: دار الشروق ١٩٨٩). ط١ ١٩٧٥.

٣٧. القاسم، عبد الرحمن عبد العزيز، الإسلام وتقنين الأحكام (المؤلف

١٣٩٧).

٣٨. القاضـي، أحمد بن عبد الرحمن، الحـوار مع أتباع الأديان الأخرى (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي ١٤٢٣هـ).

٣٩. محيسـن، محمد محمد سالم، حقوق الإنسان في الإسلام (المؤلف ١٤١٢هـ).

٤٠. المسـاري، محمـد العربي، الاعتـذار عن الماضي كصيغـة لتوطيد التعايـش والحـوار، مقـدم في النـدوة الدوليـة بعنـوان «الحـوار بيـن الحضارات مـن أجل التعايش» المنعقد في دمشـق في الفترة بين ١٨- ٢٠ مايو ٢٠٠٠ بإشراف منظمة إيسيسكو ووزارة التربية السورية.

٤١. مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٤).

٤٢. المقدسي، عبد الله بن قدامة أبو محمد، الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل (بيروت: المكتب الاسلامي ---).

٤٣. الميداني، عبد الرحمن حبنكة، أجوبة الأسـئلة التشـكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية العاملة تحت تنظيم الآباء البيض (مكة المكرمة: مكتبة المنارة ١٤١٢).

٤٤. الناصر، محمد حامد، خولة عبد القادر درويش، تربية الأطفال في رحاب الإسلام في البيت والروضة (جدة: مكتبة السوادي للتوزيع ١٤١٥هـ).

٤٥. هارون، عبد السـلام، تهذيب سـيرة ابن هشام ط٥ (الكويت: دار البحوث العلمية ١٩٧٧).



قائمة المراجع الأجنبية

1. *The Arab American News 26 January 1996.*
2. *Bulletin، Burue of Justice Statatistics، Department of Justice، USA، Feb 1996.*
3. *Ismaeel، Saeed، Fate: Al-Qada Wal Qadar، Toronto، Canada: Al-Attique Publishers، Inc. 2000.*
4. *Jeffries، N.، Palestine: The Reality، London: Longmans 1988.*
5. *Naik، Zakir abdul Karim، Answers to Non-Muslims Commonm Questions about Islam، Islamic Research Foundation wwwirf.net.*
6. *Shanker، Thom and David E. Sanger، White House Wants to Bury Pact Banning Tests of Nuclear Arms، New York Times July 7، 2001.*
7. *Sieny، Saeed I.، Creation of Man and Fate، a paper presented to the Conference on Cultures and Philosophies at St. Petersburg، S. S. U. between 7-12 September 2002.*
8. *Sieny، Saeed I.، Muslim and non-Muslim Relations، Medina: Darul Fajr Bookstore 2005.*

الكتاب في أسطر

يقدم هذا الكتاب صورة شاملة عن الإسلام: مصادره، ومعتقداته، وعباداته، وتشريعاته، ومبادئه الأخلاقية، ولكن باختصار شديد. كما يحاول الإجابة على الأسئلة الأكثر طرحا حول التعاليم الإسلامية.

كما يهدف الكتاب إلى تحسين العلاقة بين المسلمين وغيرهم، ولاسيما إذا كانوا يعيشون في وطن واحد، وذلك بتعريف غير المسلمين بحقيقة الإسلام. فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الأرواح جنود مجندة. فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.»(صحيح البخاري)

المؤلف في أسطر

ينطلق المؤلف عند وضعه هذا الكتاب من خبراته المتنوعة في الحياة وفي المعرفة. فقد علّم وألّف وقام بأبحاث، وشارك في ندوات ومؤتمرات، في مجالات، مثل: العلوم الاجتماعية أو السياسية، ومناهج البحث العلمي، والتعليم، والاتصال الجماهيري أو الإقناعي، والترجمة، والمقارنة بين الأديان، والدراسات الإسلامية.

وقد لاحظ المؤلف في رحلاته الكثيرة والعيش مدة طويلة في المجتمعات غير الإسلامية أن تعامل الناس عامة ينطلق من الفطرة البشرية السوية. لهذا، فإنه يكن الود لكل من لا يؤذى الآخرين ومستعد لمساعدته في تحقيق السعادة الشاملة له.

يطلب من:

مكتبة دار الفجر الإسلامية

ص. ب. ٣٨٤٨ المدينة المنورة، ناسوخ: ٩٦٦٤٨٢٦٦٧٥٢+

دار الهديان للنشر والتوزيع

ص. ب. ١٥٠٣١ الرياض: ١١٤٤٤، ناسوخ: ٩٦٦٤٨٢٦٦٧٥٢+

AL-ATTIQUE PUBLISHERS INC. CANADA

Tel.: (+1) 416-615-1222, & 416-566-0404

Al-attique@al-attique.com